تم تصدير هذا الكتاب آليا بواسطة المكتبة الشاملة
(إضغط هنا للانتقال إلى صفحة المكتبة الشاملة على الإنترنت)

الكتاب : تفسير سورة البقرة

هذا الكتاب من مطبوعات موقع الكوثر ومن منشوراته الإلكترونية في الإنترنت فلا يجوز الإستفادة منه تجاريا
www.al-kawthar.com/maktaba

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة البقرة

فضل السورة

نكتفي في بيان فضل هذه السورة المباركة بذكر حديثين:

١-ما نقله ابن بابويه والعياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال :

((من قرأ سورة البقرة وآل عمران جاءتا يوم القيامة تظلانه على رأسه ، مثل الغمامتين ، أو مثل العباءتين))(١)

٢-ما ذكره أمين الإسلام الطبرسي – قدس سرّه – في مجمع البيان قال:

((سئل رسول الله صلى الله عليه وآله أيّ سوَر القرآن أفضل ؟ قال : البقرة قيل أيّ آي البقرة أفضل ؟ قال : آية الكرسي)).

وهذا الحديث يدلُّ على أهميَّة معرفة الله سبحانه وتعالى ، لأنَّ معرفته هي المنطلق الأوّل لسائر المعارف ، وآية الكرسي قد اشتملت على مفاهيم رئيسيَّة في مجال المعرفة . وفي كتاب التوحيد حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى العطار (ره) عن أبيه عن احمد بن محمد بن عيسى عن الحجال عن ثعلبة بن ميمون عن زرارة قال :

((سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : (وسع كرسيه السموات والأرض) السموات والأرض وسعن الكرسي أم الكرسي وسع السموات والأرض ؟ فقال بل الكرسي وسع السموات والأرض ، والعرش وكل شئ في الكرسي))(٢)

وفي الكافي بإسناده عن حماد بن عيسى عن ربعي عن فضيل بن يسار قال:

((سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: " وسع كرسيه السموات والأرض " فقال: يافضيل ، السموات والأرض وكل شئ في الكرسي))(٣)

وفي حديث آخر عن الإمام زين العابدين عليه السلام يشير إلى أهميَّة تلك الآية و آيات أخرى في تلك السورة المباركة ، قال عليه السلام:

---

(١) تفسير البرهان ج١ ص ٥٩١

(٢) *******

(٣) *******

((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من قرأ أربع آيات من أوَّل البقرة وآية الكرسي وآيتين بعدها ، وثلاث آيات من آخرها ، لم ير في نفسه وماله شيئا يكرهه ، ولا يقربه الشيطان ولا ينسى القرآن.))(١)

****

{ ألم }(٢)

الحروف المقطَّعة

قد اختلف المفسرون من القدماء و المتأخرين في تفسير الحروف المقطَّعة –وهي التي كلَّ حرف ينطق بمفرده– و قد جمع أمين الإسلام الطبرسي– رضوان الله تعالى عليه–(٣) تلك الأقوال في أحد عشر قولاً ملخصها :

"١–إنَّها من المتشابهات التي استأثر الله بعلمها ، ولا يعلم تأويلها إلا هو .

٢–إنَّها أسماء السور ومفاتحها .

٣–إنَّ المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى.

٤–إنَّها أسماء الله تعالى منقطعة، لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم .

٥– إنها أسماء القرآن .

٦– إنها أقسام أقسم الله تعالى بها، و هي من أسمائه.

٧– إن كلَّ حرف منها مفتاح اسم من أسماء الله تعالى، و ليس فيها حرف إلا وهو في آلائه و بلائه، و ليس فيها حرف إلا وهو في مدة قوم وآجال آخرين.

٨– إن المراد بها مدة بقاء هذه الأمة.

٩– إن المراد بها حروف المعجم، استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور، عن ذكر بواقيها التي هي تمام الثمانية و العشرين حرفاً.

١٠– إنها تسكيت للكفار، لأن المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا لهذا القرآن، و أن يلغوا فيه، كما روى به التنزيل من قوله "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه" الآية. فربما صفروا، وربما صفقوا، وربما لغطوا ليغلطوا النبي صلي الله عليه و آله و سلم، فأنزل الله تعالى هذه الحروف حتى إذا سمعوا شيئاً غريباً، استمعوا إليه، و تفكروا واشتغلوا عن تغليطه، فيقع القرآن في مسامعهم، ويكون

ذلك سبباً موصلاً لهم إلى درك منافعهم .

---

(١) ******

(٢) البقرة ١

(٣) مجمع البيان ج١-ص ٧٥-٧٧.

١١- إن المراد بها أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في خطبكم وكلامكم، فإذا لم تقدروا عليه، فاعلموا أنه من عند الله، لأن العادة لم تجر بأن الناس يتفاوتون في القدر هذا التفاوت العظيم. و إنما كررت في مواضع استظهاراً في الحجة "

وقد وردت أحاديث مختلفة في هذا المجال نشير إلى بعضها :

((في كتاب معاني الأخبار بإسناده تلي سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام : أما " الم " في أول البقرة ، فمعناه أنا الله الملك))(١)

((بإسناده إلى أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال : " الم " هو حرف من حروف اسم الله الأعظم المقطع في القرآن ، الذي يؤلفه النبي صلى الله عليه وآله والإمام ، فإذا دعي به أجيب))(٢)

((على بن موسى الرضا عليه السلام قال: سئل جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن قوله (الم) فقال: في الألف ست صفات من صفات الله عز وجل ، (الابتداء) فان الله عز وجل ابتدأ جميع الخلق والألف ابتداء الحروف و (الاستواء) فهو عادل غير جائر ، والألف مستوفى ذاته ، و (الانفراد) فالله فرد والألف فرد و (اتصال الخلق بالله) والله لا يتصل بالخلق وكلهم يحتاجون إليه والله غنى عنهم ، والألف كذلك لا يتصل بالحروف والحروف متصلة به وهو منقطع عن غيره ، والله تعالى باين بجميع صفاته من خلقه))(٣)

رأي الإمام – قدس سره – في الحروف المقطَّعة :

لقد تطرّق الإمام الخميني قدس سرُّه إلى فصل تحدَّث فيه عن "طه" التي هي من الحروف المقطَّعة وذكر أنه يوجد اختلاف شديد في الحروف المقطعة الواقعة في أوائل بعض السور، ثمَّ قال:

---

(١) معاني الأخبار ص ٢٣-ح٢ نور الثقلين ج١-ص٢٦.

(٢) معاني الأخبار ص ٢٢-ح٢ نور الثقلين ج١-ص٢٦.

(٣) *******

"وما يوافق الاعتبار أكثر من غيره هو أنها إشارات ورموز تستعمل بين المحب والحبيب ولا يستطيع أحد أن يعرف شيئا عنها . وما ذكره بعض المفسرين حول تلك الحروف حسب حرصهم وحدسهم، فهو حدس موهون لا مستند له غالبا . وفي حديث أبي سفيان الثوري أيضاً إشارة إلى أنها رموز . ولا يستبعد أن تكون أموراً فوق القدرة الاستيعابية للإنسان ، وقد خص الله سبحانه فهمها بالمخاطبين المخصوصين من أوليائه ."(١)

أقول رأي الإمام قدّس سرّه موافق لما ذكره الطبرسي– رضوان الله تعالى عليه– في مجمع البيان في الرأي الأوّل وهو أنها من المتشابهات التي استأثر الله بعلمها ولا يعلم تأويلها إلا هو، ثمّ قال:

((وهذا هو المروي عن أئمتنا عليهم السلام وروى العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: لكلّ كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي))(٢)

ملاحظات :

قال العلاّمة الطباطبائي في الميزان :

"و الذي لا ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سور شتى و هي تسع و عشرون سورة افتتح بعضها بحرف واحد و هي "ص" و "ق" و "ن" ، و بعضها بحرفين و هي سور "طه" و "طس" و "يس" و "حم"، و بعضها بثلاثة أحرف كما في سورتي "الم" و "الر" و "طسم" و بعضها بأربعة أحرف كما في سورتي "المص" و "المر" و بعضها بخمسة أحرف كما في سورتي "كهيعص" و "حمعسق".

و تختلف هذه الحروف أيضاً من حيث إن بعضها لم يقع إلا في موضع واحد مثل "ن" و بعضها واقعة في مفتتح عدة من السور مثل "الم" و "الر" و "طس" و "حم".

---

(١) ******

(٢) *****

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات و الراءات و الطواسين و الحواميم، وجدت في السور المشتركة في الحروف من تشابه المضامين و تناسب السياقات ما ليس بينها و بين غيرها من السور. و يؤكد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب

الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من قوله: "تنزيل الكتاب من الله" أو ما هو في معناه، و ما في مفتتح الراءات من قوله: "تلك آيات الكتاب" أو ما هو في معناه، و نظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين، و ما في مفتتح الميمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه."(١)

****

{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }(٢)

ذلك الكتاب

إنَّ كلمة ذلك جاءت للإشارة إلى البعيد والحال أنَّ هذا الكتاب قريب بين أيدينا فماذا يراد من ذلك ؟

الظاهر أنَّ الكتاب إشارة إلى ذلك الكتاب الذي أنزله الله في ليلة مباركة حيث يقول سبحانه:

{ حم ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ }(٣)وتلك الليلة هي ليلة القدر حيث أنزل فيه القرآن :{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } (٤)وذلك الكتاب هو الذي يطلق عليه القرآن : {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ}(٥)والقرآن هو نفس ذلك الكتاب كما قال تعالى {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ}(٦)وذلك باعتبار مقام الجمع المشار إليه في قوله تعالى : { إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ }(٧)فهو مكنون غير ظاهر إلا لمن خوطب به وهم المطهَّرون { لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ }(٨)

---

(١) *****

(٢) البقرة ٢

(٣) الدخان ١-٣

(٤) القدر ١

(٥) الحجر ١

(٦) النمل ١

(٧) الواقعة ٧٧-٧٨

(٨) الواقعة٧٩

ولعل مجيء الحروف المقطَّعة في البداية، إشارة إلى هذه الحقيقة وأنَّه سبحانه أراد بذلك أن يبيِّن بعض الرموز التي لا يمكن لأمثالنا معرفتها أصلاً ، وهي التي تنبئ عن اللوح المحفوظ الذي لا يعلمه إلا الراسخون في العلم كما مرَّ في كلام الإمام قدِّس سرّه الشريف .

والجدير بالذكر ما ورد بعد ذلك { تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }(١) والوصف مشعر بالعليَّة ، فرب

العالمين حيث أنَّه ربّ للعالمين نزَّل هذا الكتاب على العالمين كما أكَّد ذلك بقوله{ الم}(٢) { تَنزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }(٣) فالذي لا ريب فيه بمعنى الكلمة هو واقع الكتاب الذي هو في اللوح المحفوظ { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ }(٤)وباعتبار التفريق سمي فرقاناً ، قال تعالى :{ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا }(٥)

الفرق بين القرآن والفرقان هو من حيث الاعتبار، فلو نظرت إلى الكتاب كوجود جمعي فهو قرآن وأما لو نظرت إليه كوجود تفريقي فهو فرقان .

" و في مفردات الراغب الأصفهانى : قال ابن عباس: إذا جمعناه واثبتناه في صدرك فاعمل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه أي جمعناه فاتبع قرآنه أي اعمل به ."

قال تعالى:{ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ }(٦)

والحاصل

إن ذلك اسم إشارة مركَّب من اسم وحرفين فالاسم هو ذا و أحد الحرفين اللام ، والآخر هو الكاف .

أمّا ذا : فهو اسم إشارة للمذكَّر الواحد فهو إشارة إلى أمر واحد لوحظ فيه أحديَّة الجمع وهو إشارة إلى الكتاب الذي مرَّ ذكره وقد تطرَّق إليه سبحانه في قوله :

---

(١) الواقعة٨٠

(٢) السجدة١

(٣) السجدة٢

(٤) البروج ٢١-٢٢

(٥) الفرقان١

(٦) القيامة ١٦-١٩

{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ }(١)

ومعنى الكتاب هو المجموع ومنه كتيبة الجيش ويطلق الكتاب على المعقولات أيضاً باعتبار اجتماعها لأنَّ الكتاب لا ينحصر في التدويني. جميع الحقائق الموجودة في الكتاب التكويني موجودة في الكتاب التدويني الذي هو كتاب اللّه وهو الكتاب الوحيد الذي يمثل جميع ما في عالم التكوين، فالحقائق الموجودة في الخارج أصبحت حروفاً و كلمات.

وأمّا اللام فهو الواسطة بين اسم الإشارة وبين المخاطب ومنه نعرف أنَّ المشار إليه بعيد عن

المخاطب وهذا يدل على المكانة السامية و العمق الكبير الموجود في الكتاب .
وأمّا الكاف فهو ضمير مذكَّر مخاطب، خوطب به النبي صلي الله عليه وآله باعتبار أنَّه أبٌ روحيٌّ للأمّة بل للناس كافة يمثِّلهم جميعاً .
الكتاب الجامع
عند استقراء الآيات التِّي بيَّنت الكتاب نستنتج ما يلي:
إنَّ الكتاب الذي أشير إليه في الآية المباركة في سورة البقرة، هو الكتاب الذي يمثِّل جميع الحقائق التكوينيَّة ، فهو مظهر للكتاب التكويني ، وأما سائر الكتب السماوية فلا تمثِّل كل التكوين وبالنسبة للمدوَّنات البشرية فهي مهما توسَّعت لن تستوعب كلَّ الكتاب التكويني ، بل ينعكس فيها كمٌّ ضئيلٌ جدّاً من الكتاب التكويني . وهذا الكتاب النازل على قلب الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله له أوصاف خاصَّة وهي :
١-أحكمت آياته
قال تعالى:
{الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }(٢)فالآيات المحكمة هي الآيات التِّي يكون موطنها اللوح المحفوظ والكتاب المكنون وبعد مدَّة مديدة فصِّلت وصارت فرقاناً لأنَّها تفرَّقت في سور وآيات :{ الم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ }(٣) { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ }(٤)
هذا:

---

(١) فصلت ٤١-٤٢
(٢) هود ١
(٣) لقمان١-٢
(٤) يونس ١

ويمكن أن يقال بأنَّ ذلك الكتاب الذي أحكمت آياته، قد تمثَّل في أم الكتاب الذي هو فاتحة الكتاب حيث يقول:{ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ }(١)
٢-النور المبين
{ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ }(٢) والمقصود من الكتاب هو ما بيَّناه سابقاً، أعني في مرحلة الجمع ولذلك فقد صرَّح سبحانه وتعالى بأنَّه القرآن في قوله {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ }(٣) وقال تعالى :{ طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ }(٤) و قد بيَّنا المقصود من القرآن وأنَّه إشارة إلى مقام

الوحدة لا الكثرة ومن هنا عبَّر عنه سبحانه بقوله { وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ }(٥) والإلقاء في الآية إشارة إلى أنَّ الكتاب ينسجم مع قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلَّم كما قال : { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً }(٦)والذي نزَّله هو روح الأمين جبريل حيث قال تعالى{ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ...}(٧)

---

(١) الزخرف٤

(٢) يوسف ١

(٣) النمل٣

(٤) الشعراء ١، ٢

(٥) النمل٦

(٦) المزمل٥

(٧) البقرة ٩٧

والحاصل أنَّ المبين صفة لذلك الكتاب باعتبار أنَّه واضح لا غموض فيه ، وهناك تعبير آخر يعطى نفس معنى المبين وهو "المنير" حيث قال تعالى :{ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ }(١) أي المنوَّر بذاته و المنوِّر لغيره من الأشياء بل هو النور حقيقةً { قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ }(٢) وقال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا }(٣) والسرّ في وضوحه يكمن في أمرٍ واحد وهو كونه "من لدن الله سبحانه " {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }(٤) والله سبحانه هو نور السماوات والأرض الظاهر بنفسه والمظهر لغيره { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }(٥) وهو تعالى الحق المبين. قال:{ ...أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}(٦) {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٧)

وعليه سوف ننتقل إلى الصفة الثالثة للكتاب المبين وهي :

٣-الحق

إنها صفة لذلك الكتاب لأنَّه مظهر من مظاهر الله تعالى وهو كلامه سبحانه :{ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ }(٨)فلا مجال للاختلاف فيه أصلاً { ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ }(٩)

٤-المصدِّق

(١) آل عمران ١٨٤
(٢) المائدة ١٥
(٣) النساء ١٧٤
(٤) هود ١
(٥) النور ٣٥
(٦) النور ٢٥
(٧) الحج٦
(٨) الرعد ١
(٩) البقرة ١٧٦

فلا خلاف بين الكتاب الذي أنزل على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلَّم وبين سائر الكتب السماوية كما أنَّه لا خلاف بين الإنجيل و التوراة { نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ }(١) وعشرات من الآيات وردت لتأكيد هذه الحقيقة إلا أنّ هناك من كان يكتم كثيراً من الحقائق التي تتطابق مع القرآن الكريم، وذلك في قبال مطامع دنيوية. قال تعالى:
{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ...}(٢) وقد وعظهم الله سبحانه حيث قال: { وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِي }(٣)
هذا
والقرآن الكريم يشتمل على حقائق كثيرة غير متواجدة في سائر الكتب، مضافاً إلى الجانب الإعجازي الخاص به. قال تعالى :
{ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }(٤) فهو الهدى وهو البشرى للمؤمنين.
ولكونه كذلك صار هو أيضاً المهيمن على جميع الكتب السماوية .
٥-المهيمن

(١) آل عمران ٣
(٢) البقرة ١٧٦

(٣) البقرة ٤١

(٤) البقرة ٩٧

{ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }(١)

في أصول الكافي عن على بن إبراهيم عن صالح بن السندي عن جعفر بن بشير عن سعد الإسكاف قال :

((قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أعطيت السور الطوال مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور ، وفضّلت بالمفصل ثمان وستون سورة وهو مهيمن على ساير الكتب ، فالتوراة لموسى والإنجيل لعيسى والزبور لداود عليهم السلام وإنّ الله عز وجل جعل كتابي المهيمن على كتبهم الناسخ لها))(٢)

ومن هنا نستكشف الفرق الكبير بين كتاب الله هذا– أعني القرآن الكريم– وبين سائر الكتب، فأصحابها لم يؤتوا إلا نصيباً من الكتاب قال تعالى:

---

(١) المائدة ٤٨

(٢) أقول قال بعضهم:

إنَّ السور الطوال هى السبع الأُوَل بعد الفاتحة على أن تعد الانفال والتوبة واحدة – لنزولها جميعا في مغازى النبى صلى الله عليه وآله وتدعيان قرينتين ولذلك لم يفصل بينهما بالبسملة–أو السابعة سورة يونس والمثانى هى السبع التى بعد هذا السبع سميت بها لانّها ثنتها واحدها مثنى مثل معانى ومعنى وقد تطلق المثانى على سور القرآن كلها طوالها وقصارها وأما المئون فهى من بنى اسرائيل إلى سبع سور سميت بهالان كلا منها على نحو من مائه آية كذا في بعض التفاسير"

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ }(١)

لا ريب فيه

فلا مجال إذاً للاختلاف في هذا الكتاب أصلاً ولا يحقّ لأحدٍ أن يناقشه لأنَّه :

حقّ من ربِّ العالمين فلا مجال لتسرُّب الريب إليه { وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ }(٢){ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ }(٣) وذلك لأنَّ وجود الريب في الكتاب يعني أنَّ الله قد ظلم العالمين ، قال تعالى :{ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعالَمِينَ }(٤). والمنفي هو مطلق الريب في كافة أبعاده "لا ريب فيه" فهي قد نفت الماهيَّة و جنس الريب عن الكتاب فهو متقن من كافة الزوايا و الأبعاد وهذا شأن كتاب الهداية .

وهذه الصفة – أي عدم الريب مطلقاً – تؤكِّد على أنَّ المقصود من الكتاب هو ما أوضحنا، أعني ما هو موجود في اللوح المحفوظ ، فلا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى { وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ }(٥) لأنَّهم ترددوا في ما أنزل على الرسول صلى الله عليه وآله رغم سطوع نوره ووضوح دلالته ، وربما كان السبب تفرّقه ليصبح فرقاناً و انتشاره في سوَرٍ ومواقع مختلفة ولهذا تردد فيه البعض ومنشأ هذا الشك والترديد إنَّما هو البغي والعدوان كما تدل عليه آيات كثيرة .

ما هو الريب؟

---

(١) آل عمران ٢٣

(٢) يونس٣٧

(٣) القلم٥٢

(٤) آل عمران ١٠٨

(٥) البقرة ٢٣

الريب لا يعني مجرَّد الشك العادي، فإنَّ الشك هو مقدَّمة العلم ولا مانع منه ، بل يراد منه الشك المذموم الذي يلازم التّهمَة والإثم. ويمكن لنا الاستشهاد بالآية المباركة حيث قال تعالى:

{ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ }(١) وقال : { مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ }(٢)وأراب أي صار ذا رِيبة فهو مُرِيب ورابني أمره .

والكتاب الذي لا ريب فيه أصلاً يكون بالطبع هدىً للمتقين ....

****

{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }(٣)

القرآن كتاب هداية

أمّا أنَّ القرآن هو كتاب الهداية فيستفاد من جميع آياتها ، إذ أن كلّها تنصب في الهداية وتصرِّح أو تشير إلى الجانب الهدائي سواء في قصصه أو في أمثاله أو في بيانه للقضايا العلميَّة، لأنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلَّم لم يبعث لأجل أن يبيِّن للناس الحقائق العلمية و أسرار الطبيعة، بل بعث لتعليم الناس و تزكيتهم فهو السراج المنير . وبناءً عليه، عند قراءة القرآن، ينبغي أن نركِّز على الجانب الهدائي في القرآن الكريم وكثيراً ما تشير آخر الآيات إلى هذا الجانب .

مثال

عندما يبيِّن الظواهر الكونية يقول:

{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ }(٤)

فالآية رغم أنَّها تتحدَّث عن ظاهرة حركة الأرض الهادئة والسريعة حيث تشبِّه ذلك بالسحاب، إلا أنَّها تقول بأنَّ الجبال هي التي تمرّ وذلك لأنَّ القرآن كتاب هداية لجميع الناس لم يصرِّح بالأرض بل ذكر الجبال لأنَّ عامَّة الناس ينظرون إلى الجبال بعظمة و هيبة ، كما أنَّه سبحانه في آخر الآية، يبيِّن النتيجة المطلوبة من هذا التأمل في الكون وهي :{ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ }(٥).

الهداية تكوينيَّة و تشريعيَّة

---

(١) ق٢٥

(٢) القلم١٢

(٣) البقرة ٢

(٤) النمل٨٨

(٥) النمل٨٨

التكوينيَّة :تشمل كافة الموجودات والمراد منها هي أنَّه تعالى هداها إلى السبيل الذي يوصلها إلى كمالها ضمن نظام دقيق وقانون متقن قال تعالى :

{ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }(١)

التشريعيَّة :وهي التي تتحقق بإرسال الرسل وإنزال الكتب من قبل الله تعالى، فمهمَّة الأنبياء هي تعليم وتربية الناس وإيصالهم إلى الكمال ، وهناك آيات كثيرة تؤكِّد على هذه الحقيقة .

وينبغي أن نبيِّن مفهوم الهداية التشريعيَّة فنقول:

مفهوم الهداية التشريعيَّة

هي الدلالة وإراءة الغاية بإراءة الطريق لأجل الإيصال إلى المطلوب .

قال في المفردات:

"الهدى والهداية في موضوع اللغة واحد، لكن قد خص الله عز وجل لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه واختص هو به دون ما هو إلى الإنسان ".

أقول:

ولذلك قال تعالى :

{ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}(٢){ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى }(٣){ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }(٤){ هُدًى لِلنَّاسِ }(٥)

وذلك لأنَّ كلمة "هدى" مصدر، وجميع القيَم أساسها من الله سبحانه وتعالى حيث أنَّه نور السماوات والأرض .

يهدي من يشاء

تؤكد كثير من الآيات على أنَّ الهداية – بالمعنى الثاني– مشروطة بإرادة الله تعالى، فلا يهدي سبحانه إلا من يريد قال تعالى: { وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ }(٦) أو مرتبطة بمشيئته { لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }(٧).

---

(١) طه٥٠

(٢) البقرة ٣٨

(٣) البقرة ١٢٠

(٤) البقرة ٢

(٥) البقرة ١٨٥

(٦) الحج١٦

(٧) النور٤٦

لا الهداية فحسب بل حتَّى الإضلال { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }(١)

ولا يتمكَّن أحدٌ أن يقف في قبال إرادته تعالى حتى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (وإن كانت إرادته صلوات الله عليه وآله هي إرادة الله تعالى) قال تعالى: { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }(٢) وقال: { فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ }(٣) وبما أن القرآن نور الله فبطبيعة الحال { يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }(٤)

وأهل النار هم الذين ضلُّوا عن السبيل فخسروا أنفسهم، يقول سبحانه في شأنهم: { مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ }(٥) وأمّا أهل الجنَّة فإنهم يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا الله...}(٦)

هذا

ومن ثمَّ يقول { قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ }(٧)

سؤال

وهاهنا سؤال يطرح نفسه وهو :

ما هي الشرائط التي ينبغي أن تتوفَّر في الإنسان ليكتسب ويستفيض من هداية الله سبحانه ؟

وأيضاً ما هي الأسباب الرئيسيَّة التي تؤدِّي إلى أن يقع الإنسان في الضلالة والانحراف فلا تشمله الهداية الإلهيَّة ؟ ثمَّ من هم الذين قد ضلّوا عن السبيل ؟

الجواب

الجواب على هذا السؤال يتوقَّف على بيان أمور ثلاثة :

الأمر الأوَّل : الهداية عامَّة و خاصة

---

(١) فاطر ٨

(٢) القصص٥٦

(٣) الروم٢٩

(٤) النور٣٥

(٥) الأعراف ١٧٨

(٦) الأعراف ٤٣

(٧) الأنعام ١٤٩

ينبغي أن نعرف أنَّ الهداية التشريعيَّة تنقسم إلى قسمين رئيسيين :

١- إراءة الطريق

وهذه الهداية مما تقتضيه الحكمة الإلهيَّة حيث يقول سبحانه :{ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى }(١)والهداية في نطاقها هذا تعني أنَّ الله سبحانه يبيِّن للإنسان طريق الحق وطريق الباطل، فيبقى هو الذي يختار أحدهما ، قال تعالى: { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا }(٢) فالشاكر والكفور هو الإنسان نفسه وقال :{ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }(٣)وحينئذٍ هو الذي ينبغي أن يقرِّر فيقول تعالى { فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ }(٤) والحاصل أنَّ هذه الهداية عامَّة للجميع من غير استثناء أصلاً .

٢-الإيصال إلى المطلوب

وهي هداية المعونة الإلهيَّة التي تشمل كلَّ من سلك الطريق الصحيح باختياره فيوصله الله إلى المقصد و يحافظ عليه كي لا يتورَّط في الضلال، وهذه الهداية لا مانع منها عقلاً وعقلائياً ولا تزاحم عدل الله تعالى، لأنَّها رغم اشتراطها بالسعي و الثبات إلا أنَّها شاملة لجميع الخلق من غير تخصيص ، فمن حرَّم نفسه منها بعمله السيئ، فوقع في ظلمات بعضها فوق بعض، فلا يلومنَّ إلا نفسه كما قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }(٥)

الأمر الثاني : صفات القرآن الكريم

لقد وصف الله سبحانه كتابه بصفات كثيرة، أهمُّها هي الصفات التالية :

١-هدى. ٢-نور. ٣-موعظة. ٤-ذكرى. ٥-بشرى. ٦-شفاء. ٧-بيان .٨-رحمة.

إليك نماذج من الآيات. قال تعالى:

---

(١) الليل١٢

(٢) الإنسان ٣

(٣) البلد١٠

(٤) البلد ١١

(٥) فصلت١٧

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}(١) { هُدًى لِلنَّاسِ.. }(٢) {وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }(٣) { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ }(٤){هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ}(٥)

وسيأتي الكلام عن كلِّ صفةٍ تفصيلاً عند تفسير الآية التي وردت بشأنها إن شاء الله تعالى .

ولكن عندما نتأمَّل في تلك الصفات نشاهد أنَّ محلَّها وموطنها واحدٌ وهو قلب الإنسان المسلم المؤمن والمتقي والمحسن ، وذلك واضح، لأنَّ القرآن الكريم مادام أنَّه نور إلهي مبين فهو يرتبط بعباده الذين تنوَّروا به فهو نور السماوات والأرض { جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }(٦).

الأمر الثالث : القلب موطن تلك الصفات

ولا يخفى أنَّ طبيعة النور الإلهي والهداية الربّانية، لا تنسجم إلا مع القلوب وكذلك الموعظة والذكرى والشفاء والبيان.

---

(١) النساء ١٧٤

(٢) البقرة ١٨٥

(٣) هود ١٢٠

(٤) آل عمران ١٣٨

(٥) لقمان٣

(٦) الشورى٥٢

فالهداية هي صفة للقلب لا للجوارح ، قال تعالى :{ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }(١) فالقلب الذي هو حاكم على الأعضاء و الجوارح هو المهتدي، وأما الجوارح فليست هي إلا علامات دالَّة على اهتداء الإنسان و وقوعه على الصراط المستقيم ، لأنَّ الإيمان الذي هو أساس الهداية يتعلَّق بالقلب وهو من ملكاته وهو غير الإسلام الذي يتحقَّق بمجرَّد التلفُّظ بالشهادتين ، ومن هنا قال تعالى مخاطباً للأعراب الذين يدَّعون الإيمان { وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ... }(٢) وفي آية أخرى يقول سبحانه :{... حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ...}(٣). و الشفاء والرحمة أيضاً هما صفتا قلب المؤمن لا جوارحه ولهذا نراهما قد اسندا إلى المؤمنين، فقال تعالى :{ وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا}(٤) فالنظر كلّ النظر إلى إيمانهم المستقرّ في القلب.

كما أنَّ الذكرى يتعلَّق بالقلب ، فهو الذي يتذكَّر وهو الذي يغفل قال تعالى : { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى

لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ...}(٥)وقال :{ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}(٦) وسرّ ذلك يكمن في أمر واحد وهو أنَّ القرآن هو كلام الله وذكره هو ذكر الله بعينه :{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }(٧).

---

(١) التغابن١١

(٢) الحجرات١٤

(٣) الحجرات٧

(٤) الإسراء٨٢

(٥) ق٣٧

(٦) الكهف٢٨

(٧) الأنفال ٢

ومن هذا المنطلق، يبيِّن القرآن الكريم الآثار الإيجابيَّة في كتاب الله عزَّ وجلَّ حيث يقول: { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ }(١)

والقرآن الكريم بصريح الكلمة يقول: { إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى }(٢) وعندما يبيِّن فلسفة نزول القرآن ، يخاطب الرسول الأكرم بأنَّ القرآن لم ينزل { إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى }(٣) والخشية صفة متمحِّضة للقلب. يقول سبحانه :{ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ }(٤) وقال تعالى: { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ}(٥) وهذا الصفاء القلبي يوصل المؤمنين إلى مستوى من العرفان حيث يذكرهم سبحانه بقوله: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}(٦)

النتيجة:

إنَّ الهداية والضلال يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بحقيقةٍ واحدة وهي:

سلامة القلب وسقمه

قال صاحب المفردات:

"السلم والسلامة التعري من الآفات الظاهرة والباطنة "

وحيث أنَّ الله هو الموجود المطلق من غير آفة أو نقص فهو السلام قال: { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ ...}(٧)

(١) الزمر٢٣
(٢) النازعات٢٦
(٣) طه٣
(٤) ق٣٣
(٥) الرعد٢٧
(٦) الرعد٢٨
(٧) الحشر٢٣

والهدف الرئيسي من هذا الكتاب الإلهي هو الهداية إلى سبل السلام وإخراج الناس من الظلمات المطلقة إلى النور المطلق { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }(١)
ولأنَّ السلامة الحقيقة لا تكون إلا في الجنَّة، إذ أنَّها دار البقاء بلا فناء أصلاً وصحة بلا سقم أبداً، حيث أنَّها دار الخلود والمقام { وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }(٢) فعليه ينبغي للإنسان أن يحصِّل مراتب السلامة كي يكتسب الدار الآخرة، حيث قال سبحانه: { لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }(٣)ومن اللازم أن يحظى بقلبٍ سليم كي ينجو من صعوبات يوم القيامة { يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ، إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }(٤) والقلب السليم هو القلب الذي يلاقي الحق وليس فيه غيره كما في أصول الكافي عن على بن إبراهيم عن أبيه عن القاسم بن محمد عن المنقرى عن سفيان بن عيينة قال :
((سألته عن قول الله عز وجل : "إلاّ من أتي الله بقلب سليم " قال : السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه ، قال : وكلّ قلبٍ فيه شرك أو شك فهو ساقط ، و إنَّما أراد بالزهد في الدنيا لتفزع قلوبهم إلى الآخرة))

(١) المائدة ١٦
(٢) العنكبوت٦٤
(٣) الأنعام ١٢٧
(٤) الشعراء ٨٨-٨٩

وعلى ضوئه يمكننا التعرف على حقيقة التقوى و المتقين الذين هم المهتدون بالقرآن فإنَّ التقوى ملكة قلبيَّة توجب الإطمينان والأمن والسلام، كما قال تعالى :{ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ }(١) وقد شرح سبحانه هذا المقام السامي بقوله { وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ }(٢) فتأمَّل في كلٍ من المفاهيم التي وردت في الآيات خاصَّة كلمة "أوّاب" و "خشي" و "قلب منيب" و "يوم الخلود" ثم ارجع إلى ما ذكرنا، تعرف أنَّ الأمر كلَّه راجع إلى القلوب ليس إلا .

وسيأتي تفصل حالة التقوى الكامنة في القلب التِّي هي الأساس للاهتمام الإلهي و العنايات الخاصة فانتظر.

ثمَّ

إنَّ في قبال القلب السليم، هناك قلوبٌ يعتريها أمراض لا حصر لها هي التي تقف دون تقبُّل الفيوضات الربّانية ، وقد بيَّنها القرآن الكريم تفصيلاً، فلو تعرَّفنا عليها، أمكننا أن نفسِّر آيات الهداية والإضلال ونتعرَّف على شروطهما ، فلنبدأ بالسلبيَّة منها أعني التِّي تمنع من الاهتداء بالهدى ثمَّ نتطرَّق إلى الإيجابيَّة، أعني الأرضيَّة الخصبة لتقبُّل الهداية الإلهيَّة .

ولا بد أن ننبِّه القرّاء الكرام بأنَّنا لسنا بصدد استقرار جميع الآيات في هذا البحث وإنَّما نستعرض الخطوط العامَّة وتفصيلها سوف يبيَّن في موضعه الخاص به.

موانع الهداية

هناك أمور ينبغي أن يتجنبها الإنسان على مستوى الفرد أو المجتمع لتشمله الهداية الخاصة الإلهية ، قد تطرَّق إليها القرآن الكريم ، نضعهما تحت عنوانين رئيسيين هما:

١-الكفر والإلحاد

٢-النفاق

---

(١) الحجر ٤٥-٤٦

(٢) ق ٣١-٣٤

وحيث أنَّ الحالة الثانيَّة أعني النفاق أخطر من الحالة الأولى –كما ستعرف في تفسير الآية السادسة فما بعدها من سورة البقرة – فلذلك سوف نبدأ ببيان العنوان الأوَّل لننتقل إلى العنوان الثاني .

إنَّ أهم التعبيرات التي وردت في هذا المجال هي :

١–{ اللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(١)

٢–{ اللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }(٢)

٣–{ اللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }(٣)

٤–{ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ }(٤)

ولا تظنَّ أنَّ هذه العناوين القبيحة أعني الظلم والكفر والفسق و الإسراف والكذب، قد وردت في شأن غير المسلمين بلسانهم أعني الكافرين والملحدين ! بل هي تمس المنافقين أضعافاً مضاعفة أكثرَ من الكافرين .

وهذا إن دلَّ على شيء فيدلُّ على خطورة مرض النفاق وخباثته المضاعف وباعتبار أنَّ الأشياء تعرف بأضدادها، يدلُّ ذلك على صفاء وسلامة قلوب المتَّقين . ومن أين اكتسبوا هذا الصفاء؟ هذا ما سيتَّضح فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فلنتحدث عن كل واحدة من تلك الصفات التي تشكِّل أمراضاً نفسيَّة لنرى مدى شموليتها للكافرين و المنافقين من المسلمين .

١–القوم الظالمين

هناك عشرة آيات في القرآن الكريم تركِّز أنَّ {اللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(٥)

---

(١) البقرة ٢٥٨

(٢) البقرة ٢٦٤

(٣) المائدة ١٠٨

(٤) غافر ٢٨

(٥) البقرة ٢٥٨

أحدها تتعلَّق بنمرود حيث ادعى الربوبيَّة فالإحياء والإماتة قال تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(١)وهذا يشمل كلّ من يتَّصف بهذه الصفة النمرودية فإنه طبعاً ظالم لنفسه ولمن يتَّبعه

من الملأ .

والباقي تختص بأهل الكتاب وهم الذين اتَّخذوا مواقف سلبيَّة في قبال الإسلام والرسول بعد ما تبيَّن لهم الحق، وقد ذكر سبحانه تلك المواقف وهي تتلخَّص في:

من لم يسلك طريق الإسلام ويبتغي غير الإسلام ديناً ومن كفر بالرسول من بعد ما تبيَّن له أنَّه الحق خصوصاً علماء السوء من بني إسرائيل الذين حمِّلوا التوراة ثمَّ لم يحملوها، وأيضاً النصارى الذين بشِّروا برسول اسمه أحمد فلمّا عرفوه أنكروه ، من يفتري على الله كذباً فيتبع هواه بغير علم .

وثلاثة من تلك الآيات تركِّز على المنافقين:

١-{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(٢)

٢-من يترك التكاليف الواجبة ويسعى في الأمور الظاهريَّة التي ليس لها أصالة وعمق، رئاء الناس وقد ذكر سبحانه مصداقاً بارزاً حيث قال:

---

(١) البقرة ٢٥٨

(٢) المائدة ٥١

{ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ ، أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(١) ولا يخفى عليك الفرق بين التعمير و العمارة فالمنافقون لا يعمِّرون مساجد الله بل يَعمُرونها.

ولقد وصفهم الله تعالى ثانياً بصفة الظلم الشنيعة عندما بيَّن واقعهم المنهار فقال:

{ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }(٢)

١-القوم الكافرين

ورد هذا التعبير أعني { وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }(٣) في آيات أربعة إلا أنَّ ثلاثة منها قد قصد الله منها المنافقين دون الكافرين بالمعني المصطلح وتلك الآيات الثلاثة هي :

١-{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }(٤)

فالآية وردت في شأن يوم الغدير حيث أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد علي عليه السلام

وقال:

---

(١) التوبة ١٩

(٢) التوبة ١٠٩

(٣) البقرة ٢٦٤

(٤) المائدة ٦٧

((يا أيها الناس إنه لم يكن نبي من الأنبياء ممن كان قبلي إلا وقد عمره الله ثم دعاه فأجابه ، فأوشك أن أدعى فأجيب ، وأنا مسئول وأنتم مسئولون فماذا انتم قائلون ؟ فقالوا : نشهد انك قد بلغت ونصحت وأديت ما عليك فجزاك الله أفضل جزاء المرسلين ، فقال : اللهم اشهد ثلث مرات ، ثم قال : يا معشر المسلمين هذا وليكم من بعدي فليبلغ الشاهد منكم الغايب .))

ولكن المنافقين أنكروا كلَّ ذلك رغم وضوح الأمر فدخلوا –عندئذ – في نطاق الكافرين ، وقد مرَّ ما يؤكِّد ذلك في تفسيرنا لفاتحة الكتاب فراجع .

٢–ما ورد في الرياء حيث قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }(١)

٣–{ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}(٢)

وقد وردت الآية في جماعة اكرهوا وهم عمار وياسر أبوه وأمه سمية وصهيب وبلال وخباب الذين عذبوا وقُتل أبو عمار وأمه ، فأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه ، ثم اخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه واله فقال قوم : كفر عمار! فقال صلى الله عليه واله :

---

(١) البقرة ٢٦٤

(٢) النحل١٠٦–١٠٧

((كلا إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، وجاء عمار إلى رسول الله صلى الله عليه واله وهو يبكى فقال صلى الله عليه وآله: ما وراك ؟ قال : شر يا رسول الله ما تركت حتى نلت منك ، وذكرت آلهتهم بخير ، فجعل رسول الله صلى الله عليه واله يمسح عينيه ويقول : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت ، فنزلت الآية))(١)

"وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا" فهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح بن الحارث بن بنى لوى كان عاملا لعثمان بن عفان على مصر .

و ينبغي أن نعرف بأنَّ المشكلة التي توجب عدم اهتداء هؤلاء المنافقين بهداية الله تعالى هي سقم قلوبهم، كما ورد في عشرات من الآيات، خصوصاً ما جاء في سورة المنافقين. قال تعالى:{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ }(٢) والطبع على القلب هو أخطر ما يعتريه، نستعيذ بالله من شرِّه .

والصدر المذكور في الآية المباركة إشارة إلى ما فيه وهو القلب كما قال تعالى : { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}(٣) وقال: { فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ }(٤) وتفصيله في محلِّه .

٣-القوم الفاسقون

١-قد وردت في شأن هؤلاء الذين يرجِّحون كلَّ شيءٍ دنيوي زائلٍ على الله ورسوله وجهاد في سبيله: { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }(٥)

---

(١) *******

(٢) المنافقون٣

(٣) المائدة ٧

(٤) الحج٤٦

(٥) التوبة ٢٤

٢- وقد وردت في شأن أحد المنافقين الذي لمز علياً عليه السلام وهو عبد الرحمان بن عوف { اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }(١)

٣–وهي التي جاءت في سورة المنافقين المتمحِّضة فيهم { سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }(٢)

وقد صرَّح سبحانه فسقهم في قوله تعالى:

{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }(٣)

النتيجة

إنَّ القلب المريض لا يمكن أن يهتدي بهدى الله تعالى حيث لا صلة بينه وبين النور الإلهي بل قلب مثل هؤلاء مقفول { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}(٤) فلا يزيدهم إلا خساراً قال تعالى :{ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ }(٥).

دوافع الهداية

الشرط المهم لنيل الهداية الإلهيَّة هو صفاء القلب و خلوص السريرة وهذا هو التقوى الذي هو من شرائط الاهتداء بهدى الله {... هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }(٦) إلا أنَّ هناك صفات أخرى قد ذكرت في القرآن الكريم كلُّها تنصب في هذه الخصلة الحميدة .

من هم المتَّقون

---

(١) التوبة ٨٠

(٢) المنافقون٦

(٣) التوبة ٦٧

(٤) محمد٢٤

(٥) الصف٥

(٦) البقرة ٢

من خلال ما مرَّ من البحث، تعرفنا على المتقين و عثرنا على الأمر الذي توَّجهم بهذا الوسام الإلهي ، وهو الإخلاص والتعلُّق بالله وطهارة القلب، ومنه يمكننا أن نعرف محتوى الأحاديث التِّي تقول بأنَّ المتقين هم شيعة أمير المؤمنين عليه السلام.

((ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين قال : بيان لشيعتنا الذين يؤمنون بالغيب ...))(١)

((وبإسناده إلى على ابن أبي حمزة عن يحيى بن أبي القاسم قال ، سألت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن قول الله عز وجل : " الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين "فقال : المتقون

شيعة على عليه السلام...))

والإمام الخميني قدِّس سرُّه قد اعتمد هذا الأمر حيث قال :

"فكما أن غير المطهّر الظاهري ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالم الظاهر تشريعا وتكليفا ، كذلك ممنوع من معارفه ومواعظه وباطنه وسرّه من كان قلبه ملوَّثا بأرجاس التعلّقات الدنيوية"(٢).

ثم قال قدِّس سرُّه:

"إن مظهر شفاعة الشافعين في هذه الدنيا هو الاهتداء بهداهم، وفي ذلك العالم هو الشفاعة لأنها باطن الهداية. فإذا حرمت الهداية هنا، حرمت الشفاعة هناك، وعلى قدر اهتدائك تكون لك الشفاعة "(٣).

أقول:

إنَّ صفة التقوى مادام أنَّها صفة قلبيَّة كما قال تعالى { ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ }(٤){أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ }(٥) فهي طهارة باطنيَّة لا يمكن أن يحصل عليها الإنسان إلا بارتباطه بالمطهرين بنحو مطلق وهم أهل البيت عليهم السلام قال تعالى:{ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا }(٦) وقال تعالى:{وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}(٧).

---

(١) *****

(٢) ******

(٣) ******

(٤) الحج٣٢

(٥) الحجرات٣

(٦) الاحزاب٣٣

(٧) الإنسان ٢١

وهناك دليل آخر على ذلك يرتبط بمعنى الهداية ومفهومه الحقيقي، حيث قلنا أنَّ الهداية هي :

"الدلالة وإراءة الغاية بإراءة الطريق لأجل الإيصال إلى المطلوب"

بالتمعُّن في هذا التعريف نستنتج أنَّ كلَّ هداية تشتمل على جوانب أربعة هي :

١-الهادي . ٢-المهدي ٣-طريق الهداية ٤-المطلوب والغاية .

* الهادي

وحيث أنَّنا نتحدَّث عن هداية الإنسان الذي هو نفحة من نفحات الرحمن، فينبغي أن نبحث عن هادٍ يهديه إلى المطلوب، وهو لا يمكن أن يكون من البشر ، لأنَّ علم البشر قاصر لا يمكنه أن يعرف تلك الحقيقة حق المعرفة ليتَّخذ خطَّة ناجحة في كافة جوانبها لأجل هدايته وإيصاله إلى الغاية، فمن يا تُرى الذي يتصدى لهذا الأمر الخطير إذاً ؟

أقول : ليس هو إلا الله سبحانه وتعالى فنظامه هو النظام المتقن الذي لا يعتريه تزلزلٌ وقانونه هو القانون الكامل الذي لا تواجهه ثغرة لأنَّ الله هو الحكيم والعليم و القدير على الإطلاق ومن هنا قال تعالى:

{ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى }(١)

* المهدي

وهو الإنسان الذي يقول الله في شأنه :{ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }(٢)فهو الروح الذي خلقه الله بقدرته وهو الذي انطوى فيه العالم الأكبر.

* الطريق

هو الصراط المستقيم الذي شرحناه في تفسير سورة الفاتحة .

* المطلوب

---

(١) البقرة ١٢٠

(٢) المؤمنون١٤

إنَّ أهم ما ينبغي أن نتحدَّث عنه هو المطلوب والغاية من الهداية، حيث لا معنى للهداية إلا بعد أن يعرف الإنسان مطلوبه و غايته المنشودة ، فلو لم يكن هناك مطلوب، فلا مجال للهداية أصلاً كيف و الهداية في حقيقتها تحتوى على الغاية ! فمن لا غاية له فهو غير مهتدٍ أصلاً وحيث أنَّ المعتقد بإمامتهم عليهم السلام ينتظر فرجهم، فهو المهتدي ليس إلا. ومن هنا تعرف أهميَّة انتظار الفرج في تحصيل التقوى فالهداية، وتعرف السر في التأكيد على أنَّها افضل العبادة وسوف نبيِّن المقصود من الغيب في قوله تعالى :

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }(١)

أنَّ المؤمنين بالغيب هم الذين يقرُّون بقيام القائم عليه السلام انه حق وأنَّ الغيب هو الحجَّة القائم عجَّل الله تعالى فرجه .

****

{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }(٢)

الكتب السماوية

---

(١) البقرة ٣

(٢) البقرة ٢

قد بيَّنا سابقاً بعض مميَّزات القرآن الكريم وقلنا أنَّه لا اختلاف بين الكتب السماوية التي نزلت على الأنبياء عليهم السلام خصوصاً بين التوراة و الإنجيل و القرآن فكلُّها جاءت من أجل هداية الناس إلى الصراط المستقيم ، ولهذا نشاهد أنَّه تعالى كثيراً ما يذكر هما مع القرآن، كما قال: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ...}(١) والآثار المتوقَّعة سواء الظاهريَّة منها والباطنيَّة شاملة لها جميعاً ، فبخصوص الآثار الظاهريَّة والبركات الصوريَّة، قال تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ }(٢)

وبالنسبة إلى النتائج الأخرويَّة و البركات المعنويَّة و الباطنيَّة، قال :{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }(٣)

---

(١) آل عمران ٣-٤

(٢) المائدة ٦٦

(٣) التوبة ١١١

ولا يخفى أنَّ صفات أصحاب رسول الله (ص) مذكورة في التوراة والإنجيل كما قال تعالى:{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ

وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }(١)

هدى للناس

ونضيف هنا أنَّه لو نظرنا إلى الكتب السماوية خصوصاً التوراة والإنجيل والقرآن، من زاوية الهداية، لرأينا بأنَّها جميعاً تهدي الناس إلى الصراط المستقيم فبخصوص القرآن الكريم، يقول سبحانه: { هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ }(٢) وبالنسبة إلى التوراة والإنجيل أيضاً يقول: { وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ... }(٣).

كلام صدر المتألهين قدِّس سرُّه

قد بيَّن صدر المتألهين في هذا المجال كلاماً لا يخلو من فائدة ، قال:

---

(١) الفتح٢٩

(٢) البقرة ١٨٥

(٣) آل عمران ٣-٤

"اعلم إنَّه من جملة الأوصاف التِّي امتاز بها القرآن عن سائر الكتب النازلة على الأنبياء السابقين- صلوات الله على نبيِّنا و عليهم أجمعين-إنَّ القرآن نفسَه هدى و نور لأنَّ المراد منهما، الحاصل بالمصدر ، وسائر الكتب فيها هدىً ونور كما في قوله تعالى:" إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ "(١)وقال في حقّ القرآن:" قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (٢)وقال:" وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ..."(٣). " "وأمّا قوله "وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ"(٤) فليس فيه نصوصيَّة على كونها هدى، لاحتمال أن يكون "هدى" حالاً من ضمير أنزل" وكذا قوله "... قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ..."(٥) لاحتمال كونه حالاً من فاعل أنزل أو جاء"(٦)

أقول:

قد ورد بالنسبة إلى التوراة قوله تعالى:{ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}(٧) وإن كانت الهداية فيها قد حدِّدت بخصوص بني إسرائيل إلا أنَّها تشبه قوله: { وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ }(٨)ولا أظن أنَّ هناك فرقاً بينهما من الناحية التِّي ركَّز عليها صدر المتألهين رضوان الله تعالى عليه فتأمَّل.

هدى للمتقين

هناك آيات كثيرة تبيِّن أنَّ القرآن ليس هدى للمتقين فحسب بل هو { هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }(٩) و { هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ }(١٠) و {... وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ }(١١) فكيف نوافق بين هذه الآيات ؟

الجواب:

---

(١) المائدة ٤٤

(٢) المائدة ١٥

(٣) الشورى٥٢

(٤) آل عمران ٣-٤

(٥) الأنعام ٩١

(٦) تفسير القرآن الكريم ج١ ص ٢٣٢

(٧) الإسراء٢

(٨) الشورى٥٢

(٩) النمل٢

(١٠) لقمان٣

(١١) النحل٨٩

١-لا تضاد بين تلك الصفات بل الإسلام يجتمع مع الإيمان و الإحسان وإن كان بينها اختلاف من حيث المرتبة، وسوف نشرح الفرق بينها في محلِّه إن شاء الله.

٢-قد تقرَّر في علم الأصول أنَّ الوصف لا مفهوم له بمعنى أنَّه لا ينفي ما عداه ، وعليه لا يدل قوله تعالى{هُدًى لِلْمُتَّقِينَ }(١) على أنَّه ليس هدىً لغيره، فلا تضاد بين الآيات أصلاً .بل القرآن هدىً للناس بنحو عام أيضاً كما قال تعالى: { هُدًى لِلنَّاسِ ... }(٢)ولكن حيث أنَّ الهداية فيها إثارة للضمائر الحيَّة، فمن لا ضمير له فلا يهتدي بهدى القرآن ، قال تعالى:{ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ(٣) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}(٤) بل الذين في قلوبهم مرض سوف يتضرَّرون عندما يعارضون القرآن {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ }(٥).

مفهوم التقوى

قال الراغب في مفرداته:

((الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره يقال: وقيت الشيء أقيه وقاية و وقاء ...التقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف هذا تحقيقه ، ثم يسمي الخوف تارة تقوى والتقوى خوفا حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضي بمقتضاه وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور))

فالتقوى هي في الواقع حالة إيجابيَّة لا سلبيَّة وهي التِّي تحافظ الإنسان من السقوط في الموبقات وهو أشبه شيء بالترس الذي يستخدم في الحروب و المظلَّة التي تقي المطر و الشمس والاسطوانة التي تحافظ على استقرار البناء وتقيه من السقوط والسدّ الذي يمنع الماء من الفيضان والتخريب.

وللتقوى درجات كثيرة تدلُّ عليها الآيات القرآنية وتؤكدها الأحاديث، نذكر ثلاثة منها وإن كانت كلّ درجة لها مراتب كثيرة. قال العلامة المجلسي رضوان الله تعالى عليه:

---

(١) البقرة ٢

(٢) البقرة ١٨٥

(٣) يس ٦٩

(٤) يس ٧٠

(٥) التوبة ١٢٥

"التقوى على مراتب ثلاث: أولها التنزه عن الشرك وعليه قوله تعالى : "وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى" قال المفسرون هي قول لا إله إلا الله وثانيها التجنب عن المعاصي ، وثالثها التنزه عما يشغل عن الحق جل وعلا"(١).

فالدرجة الأولى والثانية واضحة ، وأمّا الثالثة فينبغي أن نشرحها فنقول:

حقّ التقوى

وهو أعلى مرتبة من التقوى ولقد ورد فيه قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }(٢)

من الواضح أنَّه لا تعني الآية الكريمة من كلمة "مسلمون" الإسلام المصطلح الذي يتلخَّص في الشهادتين بل المقصود فيه الإسلام الكامل الذي هو أعلى من مستوى الإيمان الظاهري المشار إليه بقوله "يا أيُّها الذين آمنوا" في بداية الآية المباركة ، والإسلام الكامل في الإسلام المذكور في قوله تعالى:

{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ...}(٣)

والآية قد نزلت في شأن واقعة الغدير حيث نُصِب أمير المؤمنين عليه السلام خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأيضاً قوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ }(٤)

فالسلم كافة أي أجمعه من غير نقص أصلاً وأنه هو الإسلام الكامل الذي يتمثَّل في الولاية، ففي أصول الكافي عن الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن الحسن بن على الوشاء عن مثنى الحناط عن عبد الله بن عجلان عن أبى جعفر عليه السلام في تفسير الآية المباركة قال:

((في ولايتنا))(٥)

وفي أمالي شيخ الطائفة قدس سره بإسناده إلى محمد بن إبراهيم قال : سمعت الصادق جعفر بن محمد (ع) يقول :

---

(١) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٣١٦

(٢) آل عمران ١٠٢

(٣) المائدة ٣

(٤) البقرة ٢٠٨

(٥) الكافي***

((في قوله تعالى : " ادخلوا في السلم كافَّة" قال : في ولاية على بن أبى طالب : " ولا تتبعوا خطوات الشيطان "قال : لا تتبعوا غيره .))(١)

والآية هذه جاءت بعد قوله تعالى:

{وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ }(٢)وهي قد نزلت في شأن عليٍّ عليه السلام بالاتفاق.

والحاصل :

أنّ التقوى المطلوب في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }(٣) هو التقوى الخاص الذي لا يتحقَّق إلا بولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

والجدير بالذكر أنَّ الآية التي وردت بعد هذه الآية مباشرةً هي قوله تعالى:

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا... }(٤) وقد بيَّنا المقصود من الحبل في الآية في تفسير فاتحة الكتاب، فراجع.

(١) الأمالي***
(٢) البقرة ٢٠٧
(٣) آل عمران ١٠٢
(٤) آل عمران ١٠٣

وأمّا الأحاديث فأفضل ما ورد في شأنهم ما في نهج البلاغة عن عليٍّ عليه السلام وهو ما روي ((أن صاحبا لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له : همام كان رجلا عابدا ، فقال له : يا أمير المؤمنين صف لي المتقين ، حتى كأني أنظر إليهم ، فتثاقل عن جوابه ، ثم قال عليه السلام : يا همام اتق الله وأحسن ! فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فلم يقنع همام بذلك القول حتى عزم عليه ، قال : فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم قال :أما بعد فان الله سبحانه خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم ، آمنا من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، فقسم بينهم معايشهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم . فالمتقون فيها هم أهل الفضائل : منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، و مشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالذي نزلت في الرخاء ، لولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقا إلى الثواب ، و خوفا من العقاب . عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها ، فهم فيما منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ...))(١) والحديث طويل وفيه فوائد كثيرة فراجعه.
ومن تحلَّى إلى هذا المستوى من التقوى، فقد وصل إلى جميع مراتبه. قال الإمام الخميني قدِّس سرُّه:

(١) رواه الكلينى في الكافى ج ٢ ص ٢٢٦ باب المؤمن وعلاماته وصفاته مع اختلاف .

"من اتصف بجميع مراتب التقوى، يسلم دينه وعقله وروحه وقلبه وجميع قواه الطاهرة و الباطنة وتسلم حفظته الموكلة به ولا تمل ولا تضجر ولا تتوحش منه ، ومن كان بهذه الصفة، تكون معاملاته

ومعاشرته مع صديقه وعدوه بطريق السلامة، بل ينقطع جذر العداوة عن باطن قلبه وإن كان الناس يعادونه ، ومن لم يكن سالما في جميع المراتب، فهو محروم من فيض السلام بمقدار عدم سلامته وقريب من أفق النفاق بمقدار ذلك، نعوذ بالله منه" .

وهو رضوان الله تعالى عليه قد فسَّر تلك الآية المباركة وبيَّن المقصود من المسلمين في تلك الآية ، وهذا النوع من التسليم لا يتحقَّق إلا من خلال الارتباط بحبل الله وهم أهل البيت عليهم السلام.

تقسيم ثلاثي آخر للتقوى

وقد قسم–قدس سره – التقوى في مصباح الشريعة إلى أقسام ثلاثة وهي :

١–تقوى الله في الله وهو ترك الحلال فضلا عن الشبهة وهو تقوى خاص الخاص.

٢–وتقوى من الله وهو ترك الشبهات فضلا عن حرام ، وهو تقوى الخاص .

٣–وتقوى من خوف النار والعقاب وهو ترك الحرام وهو تقوى العام.

ثمّ قال:

((وكل عبادة غير مؤسسة على التقوى فهو هباء منثور قال الله عز وجل :

" أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ "(١))(٢)

أقول:

---

(١) التوبة ١٠٩

(٢) مصباح الشريعة ص ٥٦ و ٥٧ .

عند متابعة الآيات التي تأمر بالتقوى، نشاهد أنَّه تعالى تارةً يأمرنا بأن نتَّق الله فيقول: { وَاتَّقُوا اللَّهَ }وقوله: {وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِي}(١) وقوله: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ }(٢) وقد وردت في هذا المجال آيات كثيرة وأخرى يريد منّا أن نتقي النار كما في قوله: { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}(٣) وفي قوله: {وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ }(٤)فهل يمكن التوفيق بين تلك الآيات ؟ وهل هناك مناسبة بين النار وبين الله ؟

النار جلال الله

من الواضح أنَّه تعالى يتَّصف تارة بصفات الجمال وهي كالعلم والإرادة والقدرة و الكرم والرحمة والرأفة وغيرها ، و أخرى يتَّصف بصفات الجلال كالقهر والغضب والمكر والجبروت و الانتقام والشدَّة وغيرها ، وعندما نتأمَّل في صفات الجلال، نشاهد أنَّها هي التِّي تمثِّل نار الله المؤقدة وهي

التِّي تطَّلع لا على الأجسام فحسب بل على الأفئدة ، وكلُّها تنشأ من الفراق عن المحبوب والمعشوق ، أعني الذات الإلهيَّة .

ومن هذا المنطلق، صحّ للإنسان أن يقي نفسه منه ، وعليه عندما يقول سبحانه "اتَّقوا الله"، فهو يشير إلى غضبه وقهره لا رحمته ورأفته .

---

(١) البقرة ٤١

(٢) البقرة ١٩٧

(٣) البقرة ٢٤

(٤) آل عمران ١٣١

وممّا قلنا يظهر لك الوجه في كثير من الآيات التي تشير إلى الصفات الجلاليَّة كقوله تعالى:{ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }(١) وأيضاً التِّي تركِّز على الحساب في الآخرة، كقوله تعالى:{ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ }(٢)وكقوله: {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}(٣) وأيضاً قوله تعالى:{اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}(٤) وفي هذا المجال عشرات من الآيات فراجع.

كلام الإمام قدِّس سرُّه في الآية المباركة

قال الإمام الخميني قدِّس سرُّه:

((فكما أن غير المطهّر الظاهري ممنوع عن ظاهر هذا الكتاب ومسّه في العالم الظاهر تشريعاً وتكليفا ، كذلك ممنوع من معارفه ومواعظه وباطنه وسرّه من كان قلبه ملوَّثا بأرجاس التعلّقات الدنيوية ، وقال تعالى : " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين " إلى آخر الآية . فغير المتقي بحسب تقوى العامة وغير المؤمن بحسب إيمان العامة، محروم من الأنوار الصورية لمواعظه وعقائده الحقّة ، وغير المتقي وغير المؤمن بحسب سائر مراتب التقوى الخاص وتقوى خاص الخاص وتقوى أخصّ الخواص محروم من سائر مراتبها))

ومن هنا تستطيع أن نعرف كيف يكون للقرآن ظاهر و باطن بل سبعة أبطن أو سبعين بطناً !

****

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }(٥)

الظاهر إن الآيات الأربعة من أول السورة نزلت في المؤمنين المتَّقين واثنتان نزلتا في نعت الكافرين وثلاثة عشر في المنافقين ، وهذا يدلُّ على شدَّة خطورة النفاق .

و الذي يخلُّ بالاعتقاد منافق وأمَّا من يخلّ بالإقرار فهو كافر كما أنَّ من يخلُّ بالعمل فهو فاسق.

---

(١) البقرة ١٩٦

(٢) المائدة ٤

(٣) النساء ١

(٤) المائدة ٨

(٥) البقرة ٣

هذه الآية المباركة قد بيَّنت علامات ثلاثة للمتقين، كما أنَّ الآية التي تأتي بعدها أيضاً ركَّزت على ثلاثة علائم أخرى .

نظرة عامَّة

لو تأمّلنا في الآية السابقة وهاتين الآيتين عرفنا النقاط التالية:

١-إنَّ هناك ترابطاً وثيقاً بين الإيمان وبين العمل ، فمن اللازم على الإنسان المؤمن أن يسعى في تحصيل الإيمان و تعزيزه بالعمل حتى يتزايد إيمانه ومن ثمَّ تتبارك أعماله .

٢- إنَّ المتقين هم المؤمنون بالأمور الاعتقادية وهم أصحاب الرؤية الكونيَّة الصحيحة، كما انَّهم هم العاملون بالأحكام الفردية و الاجتماعية.

٣- من أراد أن يهتدي بهدى الله، ينبغي أن يؤمن بالغيب و الوحي و القيامة و يقيم الصلاة و ينفق في سبيل الله، فهي جميعاً تمهِّد الإنسان للاهتداء .

ثمَّ إنَّه قد وردت آيات مختلفة تركِّز على هاتين الصفتين أعني إقامة الصلاة و الإنفاق ، وبالنسبة إلى الصفة الثانية هناك تعبيران :

١-مصطلح الإنفاق كما في قوله تعالى : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}(١) وهي التي في سورة البقرة.

٢-مصطلح الزكاة كما في قوله تعالى : {وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...}(٢).

وبإمكاننا أن ندخل في هذه الساحة ونتعرَّف على محتواها ونستنتج منها ، بالنظر إلى المفاهيم الواردة فيها و مقايسة بعضها ببعض ، فبالجمع بينها ، يمكننا أن نصل إلى حقيقة الأمر .

وقد وصفت طوائف ثلاثة بهاتين الصفتين ، أعني أنَّهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهؤلاء الطوائف الثلاثة تتمثَّل في:

١-المحسنين

قال تعالى فيهم:

{ الم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(٣) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }(٤)

---

(١) الأنفال ٣

(٢) النمل٣

(٤) لقمان١-٥

فتلاحظ أنَّه تعالى ذكر أمرين هما الهداية و الرحمة كصفتين للقرآن ولكنَّهما للمحسنين ، ثمَّ وصفهم بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و اليقين بالآخرة ، واستنتج بأنَّهم قد هدوا بالهداية الإلهيَّة الخاصَّة ووصلوا إلى مرحلة الفلاح والسعادة الأبدية.

٢-المؤمنين

قال تعالى فيهم:

{ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ *هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }(١)

والأسلوب نفس الأسلوب إلاّ أنَّهم قد حظُّوا بأمرين : الهداية و البشرى .

٣-المتَّقين

وهي التي ترتبط بسورة البقرة حيث قال:

{ ألم *ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }(٢) ...

و قد بيِّنت الهداية بنحو مطلق من غير اقتران بأيِّ أمرٍ آخر .ثمَّ ذكرت المتَّقين وأضافت صفة الإيمان بالغيب والإيمان بالكتب ، وأمّا سائر الأمور وكذلك الإستنتاج فهي نفس ما ذكرت بخصوص المحسنين ، والنتيجة نفس النتيجة وهي الوصول إلى الفلاح.

والملاحظ في الآيات الثلاثة – مضافاً إلى ما سبق- التشابه في الأمور الثلاثة الآتية:

١-الحروف المقطعة أو الرموز القرآنية .

٢-تعظيم القرآن .

٣-أنَّه كتاب الهداية .

وعلى ضوء ذلك يمكننا أن نستنبط أموراً :

(١) النمل ١-٣

(٢) البقرة ١-٥

١-إنَّ القرآن الكريم هو هدى ورحمة بخصوص المحسنين و هدى وبشرى للمؤمنين وهدىً للمتَّقين ، علماً بأنَّ المحسنين هم أعلى درجةً من غيرهم كما ثبت في محلِّه وسيأتي ، فالجدير أن يكون القرآن رحمةً لهم وقال تعالى:{ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ }(١)

وأمّا المؤمنون فهو هدىً وبشرى لهم لأنَّهم لم يصلوا بعدُ إلى مقام المحسنين حتّى يستظلّوا برحمة القرآن، نعم إن رسخ فيهم الإيمان وانتقل من مرحلة الظاهر أعني المستودع إلى الباطن وهو المستقر في القلب(٢) فالأمر يختلف تماماً كما قال تعالى في توصيف هؤلاء :

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }(٣)

والحصر في قوله "إنَّما المؤمنون" من أجل التفريق بين طائفتين من المؤمنين:

أ- من يمتلك ظاهر الإيمان وهم الذين يخاطبهم الله سبحانه في القرآن بقوله: "يا أيُّها الذين آمنوا" وربَّما نهاهم عن كبائر الذنوب ، كما في قوله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ }(٤)

والنهي دالٌّ على أنَّه من المحتمل أن يرتكبوا مثل تلك الذنوب ، وأيضاً ربَّما حرَّضهم على الإيمان

(١) الأعراف ٥٦

(٢) وقد وردت أحاديث في تفسير قوله تعالى "فمستقر ومستودع" فراجع البحار ج ٦٩ ص ٢٢٢.

(٣) الأنفال ٢-٤

(٤) الحجرات١٢

كقوله : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...}(١)

ب–من وصل إلى الإيمان الحقيقي وبتعبير الآية المباركة : { أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ...}(٢)

وهؤلاء هم الذين وصلوا إلى مقام المحسنين . والنسبة بين الإيمان والإحسان هو العموم المطلق ، فكلُّ محسن مؤمن وليس كلَّ مؤمن محسناً وإذا وصل المؤمن إلى مرحلة الإحسان أي كان "يعبد الله كأنَّه يراه"_ كما في الحديث الشريف فحينئذٍ سوف يمكنه اكتساب الرحمة الإلهيَّة فيستشفي بالقرآن كما

قال : { وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا }(٣)

فالمؤمنون في الآية المباركة إنَّما هم الذين وصلوا إلى أعلى مستوى من الإيمان بحيث تمكَّنوا من الانسجام مع القرآن والاستشفاء به . ومن هنا يمكننا الجمع بين الآيتين ، أعني بين تلك الآية التِّي تقول:{ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ }(٤) وبين هذه الآية .

و هذا المستوى من الإيمان يتحِّد مع التقوى ، فالمتَّقون هم الذين يهتدون بهدى القرآن بنحو مطلق ، والجدير بالذكر أنَّه قد ورد بالنسبة إلى خصوص الطائفتين (المحسنين والمتَّقين) قوله تعالى:

{ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }(٥)

ومن هنا نستنتج أنَّه لا يطلق على الإنسان صفة الإحسان إلا بعد اجتماع الخصال الثلاثة التِّي اتَّصف بها المتَّقون وهي:

*الإيمان بالغيب.

*الإيمان بما أنزل على الرسول.

*الإيمان بما أنزل على سائر الأنبياء.

فلا فرق إذاً بين الآيات الواردة في شأنهم والآيات الواردة في شأن المتَّقين وأيضاً الواردة في شأن المؤمنين لا بنحو الإطلاق بل المؤمنين حقّاً كما مرّ.

---

(١) النساء ١٣٦

(٢) الأنفال ٤

(٣) الإسراء٨٢

(٤) النمل٢

(٥) لقمان٥

ثمَّ عندما ننطلق من صفتي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، نصادف آيات أخرى تدلّنا على أمور لها أهميَّة في المعرفة والعمل ومنها الولاية.

الولاية

قال سبحانه في بيان مسئوليَّة المؤمنين بعضهم تجاه بعضٍ :

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }(١)

ولكن هذه الولاية مع جميع شئونها تخضع لولاية أخرى هي كالأساس و المحور لجميع تصرُّفات المؤمنين على المستويين التشريعي والتكويني :

أمّا التشريع فقوله تعالى:{ إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ }(٢)

وأمّا التكوين فقوله :{ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ }(٣)

فالأمر يختلف في هذه الآية حيث أنَّ الكلام لا في الأمر والنهي بل هو الوحي بجميع ما له من لطافة و قدسيَّة ، فهم قد أوحي إليهم الأمرين الواجبين أعني إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهذا النمط من الأمر والتكليف لا يتناسب إلا مع قوله تعالى: "وكانوا لنا عابدين" فلا شائبة في عبادتهم أصلاً لأنها لله وحده، لا خوفاً من النار ولا طمعاً في الجنَّة وأنَّى لنا الوصول إلى هذا المستوى.

فمن هم هؤلاء ؟

أقول: قد صرَّحت الآية بأنَّهم الأئمَّة الهداة بالأمر ! شرح هذا المصطلح أعني الهداية بالأمر في محلِّه إلاّ أننا نشير إلى حديثٍ واحدٍ من كتب العامَّة في هذا المجال :

---

(١) التوبة ٧١

(٢) المائدة ٥٥

(٣) الأنبياء٧٣

((كنز العمّال بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: "و جعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا" قال أبو جعفر عليه السلام: يعني الأئمَّة من ولد فاطمة يوحى إليهم بالروح في صدورهم))(١)

هذا ومع ملاحظة كلمة "كانوا" في الآية المباركة ، يمكنك أن تعرف الزمان الذي عبدوا الله فيه ، إن

صحَّ إطلاق الزمان حينئذٍ ! فالأمر مرتبط بعالم الأرواح و الأظلَّة قبل الأجساد والأشباح .
{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}(٢)
هناك نقاش حول ارتباط الآية مع الآية السابقة، والأصحَّ أن الموصول أعني "الذين" هو صفةٌ للمتقين وهو في موضع جرّ .
مفهوم الإيمان
الإيمان في اللغة هو التصديق لشهادة قوله تعالى "وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا ولَوْ كُنَّا صَادِقِينَ" وهو مشتق من الأمن "أصل الأمن طمأنينة النفس و زوال الخوف ، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر... فالإيمان هو التصديق الذي معه أمن" والمؤمن من يؤمن نفسه من عذاب الله والله المؤمن لأوليائه من عذابه. روي عن الإمام الرضا عليه السلام : "إن الإيمان هو التصديق بالقلب والعمل بالأركان والقول باللسان". وقوله: يؤمنون، فعل مضارع يدلُّ على استمرار الإيمان.
الإيمان و العشق
يختلف الإيمان عن العلم و اليقين فليس كلُّ من علم شيئاً قد آمن به ، لأنّ الإيمان يشتمل على العشق والحبّ و القدسيَّة و الانسجام . مضافاً إلى اشتماله على الأمن و الطمأنينة –كما مرّ – ومن هنا لا يتحقق الإيمان إلا في نطاق الأمور الخارجة عن المادة، لأنَّ التعلُّق بالأمور الجسمانيَّة الحسّية الزائلة و الفانية يزيد في الاضطراب و القلق .
فما هو الحلّ إذاً ؟
للوصول إلى السكينة والطمأنينة والهدوء والأمن ، ينبغي التخلُّص و التحرُّر عن كلِّ ما هو مرتبط بالمادة ومن ثمَّ سوف يتوجَّه القلب إلى الغيب :
الغيب

---

(١) ******
(٢) البقرة ٣

فالغيب هو تلك الأمور الثابتة و المطلقة من الجمال و الكمال والقدرة التي قد انعكست في عالم الشهود ، وبعبارة أخرى الأشياء هي الآيات وهي كالبحر الصافي الذي انعكست فيه تلك الحقائق ، فالغافل يتعلَّق بتلك الصور ويترك الواقع فيعيش الاضطراب و القلق النفسي .
فينبغي للإنسان أن يستخدم علمه وعقله كي يصعد إلى مستوى الغيب بالإيمان به، لا أن ينزِّل الغيب إلى مستوى العلم ويحاول أن يستدلَّ عليه بالدليل العقلي، لأنَّه حينئذٍ قدَّ قيَّد الغيب الشفّاف

بالعقل الجامد فذهبت شفّافيته ، فسوف يكون عالماً بالواقع غير مؤمن به ، وعندئذ مثله كمثل ذلك الطفل الذي يسمع تغريد الطير ويراه ينتقل من غصن إلى غصن، ولكي يصل إليه يأخذ حجراً فيرميه ثمَّ يقبضه بيده و يحاول أن يتلذّذ بالنظر إليه كما كان وهو على الغصن. فمن الواضح أنَّه لن يصل إلى تلك اللذَّة ؛ فينبغي إذاً تصعيد الروح إلى مستوى الغيب ومن خلاله الوصول إلى الإيمان.

مفهوم كلمة الغيب

قال في المفردات بما ملخَّصه:

"غابت الشّمس إذا استترت عن العين ، يقال غاب عنّي كذا" ثمَّ استعملت الكلمة في كلّ أمر يغيب عن الحاسة أو يغيب عن علم الإنسان. و يقال للشيء غيب و غائب باعتباره بالناس لا باللّه تعالى فإنه لا يغيب عنه شئ. قال تعالى : { عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }(١) فقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ }(٢) إشارة إلى ما يغيب عن الناس و ما يشهدونه .

ما هو المقصود من الغيب في الآية ؟

الأقوال في هذا المجال كثيرة، فمنهم من خصَّص الغيب بالجنة والنار والبعث بعد الموت وبيوم القيامة، ومنهم من أضاف إليه الإيمان بالملائكة والكتب ، ومنهم من عمَّم ، فقد حكي عن ابن عباس انه قال :"ما جاء من عند الله ".

---

(١) سبأ٣

(٢) الرعد ٩

وقال جماعة من الصحابة كابن مسعود وغيره : "إن الغيب ما غاب عن العباد علمه من أمر الجنة والنار والأرزاق والأعمال وغير ذلك ".

أقول:

الظاهر من الكلمة من دون الالتفات إلى القرائن المقالية الشمولية و الاستيعاب، قال الفيض الكاشاني (ره)

"كلَّ ما غاب عن حواس الإنسان من توحيد الله ونبوَّة الأنبياء وقيام القائم والرجعة والبعث والحساب و الجنَّة و النار وسائر الأمور التِّي يلزمهم الإيمان بها مما لا يعرف بالمشاهدة وإنَّما يُعرف بدلائل نصبها الله عزَّ وجلّ عليه "(١)

ولكن

ما يوقع الإنسان في حيرة من مفهوم الغيب في الآية المباركة، وجود القرينة التّي تؤكّد على أنّه لا يقصد بالغيب جميع ما ذكر، بل نطاق الغيب بخصوص هذه الآية محدود .والقرينة هي ما جاءت في الآية التّي تليها حيث قال:

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}(٢)

فالإيمان بما أنزل إلى الرسول (ص) وهو القرآن الكريم و الكتب الأخرى السماويَّة التّي أنزلت على الأنبياء من قبل الرسول (ص) وأيضاً الاعتقاد الجازم بالآخرة قد صرّح بها في الآية ، ومن المعلوم أنَّ الآخرة شاملة لجميع ما سوف يتحقَّق فيما بعد من البعث والنشور والجنَّة والنار وسائر الحوادث.

فما هو الحلّ إذاً ؟

جواباً على الشبهة ، قال فخر الرازي في تفسيره :

"أنَّ قوله " يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ" يتناول الإيمان بالغائبات على الإجمال ثمّ بعد ذلك قوله" وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" يتناول الإيمان ببعض الغائبات، فكان هذا من باب عطف التفصيل على الجملة ، وهو جائز كما في قوله" وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ "(٣)"(٤)

---

(١) تفسير الصافي ج١ ص ٧٩

(٢) البقرة ٤

(٣) البقرة ٩٨

(٤) التفسير الكبير ج١ ص ٢٧٤

وأنت تعلم أنَّ هناك فرقاً كبيراً بين المثال الذي ذكره وبين ما نحن فيه ، لأنَّ في ما نحن فيه قد توسطت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بين الموردين، أعني الإيمان بالغيب والإيمان بالكتب واليقين بالآخرة ، مضافاً إلى تكرار "الذين" وأيضاً "يؤمنون" و "يوقنون" وهذا إن دلَّ على شيء، فإنّما يدلُّ على أنَّ كلاً منهما يتطلَّب إيماناً مستقلاً وليسا من باب الإجمال والتفصيل .

وعليه

لا يمكن التمسّك بإطلاق كلمة "الغيب" مع وجود هذه القرائن ، وفي مثل هذه الموارد ليس بإمكان غير المعصومين عليهم السلام ، أن يبدوا آراءهم تجاه القرآن لأنَّه سيكون ذلك من التفسير بالرأي الذي جاء في الحديث :

((عن النبي صلى الله عليه وآله قال : من قال في القرآن بغير علم فليتبوء مقعده من النار))(١)

أبرز مصاديق الغيب

من هنا يمكننا أن معرفة أهميَّة التمسك بالثقل الثاني وهم أهل البيت عليهم السلام كمفسِّرين للثقل الأكبر أعني القرآن الكريم . فهناك أحاديث تؤكِّد على أنَّ الغيب هو الحجّة (ع)، إليك نصُّها:

١- ((في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى عمر بن عبد العزيز عن غير واحد عن داود بن كثير الرقى عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: "هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب " قال: من أقرّ بقيام القائم عليه السلام أنه حق)) (٢)

ولا يخفى أنَّ هذا غير مختص بعصر الغيبة بل شامل لجميع العصور، لأنَّ الاعتقاد بقيام القائم عليه السلام ، كان ولازال من جملة المعتقدات الرئيسيَّة حتَّى في الأديان السابقة، فهو من جملة المواثيق التِّي أخذت على النبيين، ففي الحديث:

---

(١) البحار ج ٩٢ ص ١١١

(٢) البحار ج ٥١ ص ٥٢ و ج ٥٢ ص ١٢٤

((...عن زرارة عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام :... ثم أخذ الميثاق على النبيِّين فقال: ألست بربِّكم ثمَّ قال: و إن هذا محمَّد رسول الله و إن هذا علي أمير المؤمنين قالوا: بلى، فثبتت لهم النبوة و أخذ الميثاق على أولى العزم أني ربُّكم و محمَّدٌ رسول الله و عليٌّ أمير المؤمنين وأوصياؤه من بعده ولاة أمري و خزّان علمي و أنَّ المهديَّ أنتصر به لديني و أظهر به دولتي و أنتقم به من أعدائي و أُعبدُ به طوعاً و كرهاً ...))(١)

٢-((وبإسناده إلى على ابن أبي حمزة عن يحيى بن أبي القاسم قال: سألت الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام عن قول الله عز وجل : " الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب " فقال : المتقون شيعة على عليه السلام والغيب هو حجة الغايب ، وشاهد ذلك قول الله عز وجل: "و يقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين " فأخبر عز وجل أن الآية هي الغيب ، والغيب هو الحجة وتصديق ذلك قول الله عز وجل : " وجعلنا ابن مريم وأمه آية " يعنى حجة))(٢)

وهذا الحديث يشتمل على تفسير القرآن بالقرآن حيث فسَّر عليه السلام الغيبَ بالحجَّة باعتبار أنَّه أمر مستقبليٌّ منتظر، كما تدلُّ عليه الآية الثانية المفسِّرة للآية الأولى ، والآية الثانية لاشتمالها على كلمة "آية" كانت تتطلَّب التفسير فانتقل عليه السلام إلى الآية الثالثة حيث ذكرت الكلمة وقد قصد

منها عيسى بن مريم عليه السلام .

قال فخر الرازي في تفسيره :

---

(١) بحار الأنوار ج ٢٦ ص ٢٧٩ رواية ١٢ باب ٦

(٢) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ١٢٤

"قال بعض الشيعة: المراد بالغيب المهدي المنتظر الذي وعد الله تعالى به في القرآن و الخبر، أمّا القرآن فقوله: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ... "(١) وأما الخبر فقوله عليه السلام: " لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوَّل الله ذلك اليوم حتَّى يخرج رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي وكنيته كنيتي يملأ الأرض عدلاً و قسطاً كما ملئت جوراً وظلما "(٢)ثمَّ علَّق على ذلك فقال:" واعلم أنّ تخصيص المطلق من غير الدليل باطلٌ"(٣).

أقول:

إنّ كلامه غريبٌ ، فهل المطلق أعني "الغيب" باق على إطلاقه رغم القرائن التِّي ذكرناها ؟

مفردات مترابطة

مضافاً إلى ما سبق، هناك مفردات في الآية السابقة وهذه الآية والتِّي بعدها، تشهد لما في الأحاديث من تفسير الغيب بالحجَّة عليه السلام .

١-الهداية

قلنا إنَّها الدلالة وإراءة الغاية بإراءة الطريق لأجل الإيصال إلى المطلوب ، وعليه تتوقَّف الهداية على أمورٍ ثلاثة متلازمة: ١-المبدأ ٢-الطريق ٣- الغاية .

فالقرآن هدىً للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ، فهم الذين يهتدون بهدى القرآن، حيث يقصدون تلك الغاية ، وعلى ضوئها يقيمون الصلاة ومما رزقوا ينفقون وهو المستفاد من العطف على ما سيأتي ، وإلا لا معنى للهداية .

٢-التقوى

قد عرفنا المتَّقين سابقاً بأنَّهم قد وصلوا إلى مستوى كبير من الإيمان والالتزام ، وهناك آيات تركِّز على أنَّهم أصحاب الرؤية المستقبليَّة الصحيحة ، وأنَّ العاقبة لهم، قال تعالى:

---

(١) النور ٥٥

(٢) التفسير الكبير ج١ ص ٢٧٤
(٣) التفسير الكبير ج١ ص ٢٧٤

{ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ }(١) والآية التالية قد شرحت تلك {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }(٢)وقد مرَّ في تفسير سورة الحمد شرحٌ لهذه الآية المباركة .

رأي آخر في تفسير الآية

هناك رأي آخر في تفسير الآية المباركة، أعني قوله تعالى {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }(٣) وهو أنَّ الله سبحانه حيث قسَّم الناس إلى أقسام ثلاثة، فقد نزلت أربع آيات من أول السورة في شأن المؤمنين واثنتان نزلتا في توصيف الكافرين وثلاثة عشر في المنافقين .

فهو تعالى عندما يبيِّن صفات المؤمنين ويقول إنَّهم يؤمنون بالغيب ، يريد بيان حالهم في قبال المنافقين الذين يوصفهم فيما بعد: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ }(٤) وهم الذين قال عنهم تعالى: { يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ }(٥) فهو تعالى أراد بقوله في وصف المؤمنين: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }(٦) أن يمدحهم بأنَّهم لا يفرّقون بين السر والعلن، بل هم على أي حال يؤمنون بربَّهم، كقوله تعالى: { ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ... }(٧)و قال تعالى في صفة النّساء: { حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ}(٨) أي لا يفعلن في غيبة الزّوج ما يكرهه الزّوج .

---

(١) هود ٤٩
(٢) الأعراف ١٢٨
(٣) البقرة ٣
(٤) البقرة ١٤
(٥) آل عمران ١٦٧
(٦) البقرة ٣
(٧) يوسف ٥٢
(٨) النساء ٣٤

ويؤيِّد ذلك قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ، وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }(١) وسنتحدَّث عنها فيما بعد . وأيضاً قوله تعالى: { مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ}(٢) ولعلَّ ذكر الرحمن في الآية على اعتبار أنَّه عالم الغيب والشهادة وتتناسب صفة الرحمان لجميع العالمين كما مرَّ في تفسير سورة الحمد .

والآية التالية تشبه الآية السابقة تماماً: { إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى، تَنزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلاَ، الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى، وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}(٣) فهي تركِّز على خشية الرحمان الذي له ما في السماوات وما في الأرض وما تحت الثرى، وهذه الصفة عبارةٌ أخرى عن عالم الغيب و الشهادة والجدير بالذكر قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى ".

والحاصل:

أنَّ قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }(٤) يؤكِّد أنَّ المتقين لا يؤمنون بالله في العلانية فحسب، بل يؤمنون به بالغيب أيضاً.

أقول:

---

(١) الملك١٢-١٤

(٢) ق٣٣

(٣) طه ٣-٧

(٤) البقرة ٣

قبول هذا الرأي لا ينافي الرأي السابق، حيث أنَّ القرآن الكريم يختلف عن كافة الكتب فهو ذو وجوه كثيرة، وربَّ كلمةٍ تشير إلى معناها الحقيقي وهي توجد في ذهن السامع معنى آخر من باب تداعي المعاني وهكذا فليكن هذا المورد من ذلك ، ولا إشكال في استعمال الجار والمجرور أعني "بالغيب " كمفعول به وهو في موضع نصب على الاحتمال الأوَّل و كحال وأيضاً يكون في موضع النصب على الاحتمال الثاني ، ويقوِّي ذلك أعني إرادة المعنيين ما ورد في هذا المجال أيضاً. وهو حديث طويل :

عن أبي المفضل الشيباني ، عن موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، عن محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي ، عن محمد بن حماد بن ماهان الدباغ ، عن عيسى بن إبراهيم ، عن الحارث بن نبهان ، عن عيسى بن يقظان ، عن أبي سعيد ، عن مكحول عن واثلة بن الاسقع عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: دخل جندل بن جنادة اليهودي من خيبر على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد أخبرني عما ليس لله ، وعما ليس عند الله ، وعما لا يعلمه الله؟ "فأجابه رسول الله؛ إلى أن تحدَّث عن الحجَّة عجّل الله تعالى فرجه فقال":

((طوبى للصابرين في غيبته ، طوبى للمقيمين على محجتهم ، أولئك وصفهم الله في كتابه وقال : " الذين يؤمنون بالغيب " وقال : " أولئك حزب الله ألا إن حزب هم المفلحون))(١)

---

(١) بحار الأنوار ج٣٦ ص ٣٠٦

فالحديث يريد من قوله "يؤمنون بالغيب " المعنى الثاني، لأنَّه (ص) قد بيَّن صفات المنتظرين له ووصفهم بالصّابرين في غيبته، بمعنى أنَّهم لم يرونه ، يُلاحظ أنَّه استند على قوله: { أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْمُفْلِحُونَ}(١) وفي سورة البقرة أيضاً عندما يبيِّن سبحانه مواصفات هؤلاء يقول: { أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }(٢) هذا ولو تأمَّلت في صدر الآية السابقة التي ذكر فيها حزب الله، لاستنتجت ذلك.

ويشهد على ذلك الحديثان :

١-ابن معروف ، عن حماد بن عيسى ، عن أبي الجارود ، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال:

((قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم وعنده جماعة من أصحابه: " اللهم لقني إخواني " مرتين، فقال من حوله من أصحابه : أما نحن إخوانك يا رسول الله ؟ فقال : لا ، إنكم أصحابي وإخواني قوم في آخر الزمان آمنوا ولم يروني ، لقد عرفنيهم الله بأسمائهم وأسماء آبائهم ، من قبل أن يخرجهم من أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم ، لأحدهم أشد بقية على دينه من خرط القتاد في الليلة الظلماء ، أو كالقابض على جمر الغضا ، أولئك مصابيح الدجى ، يُنجيهم الله من كلّ فتنة غبراء مظلمة))(٣)

٢-محمد بن علي بن الشاه ، عن أحمد بن محمد بن الحسن ، عن أحمد ابن خالد الخالدي ، عن محمد بن أحمد بن صالح التميمي ، عن محمد بن حاتم القطان عن حماد بن عمرو ، عن الصادق ، عن آبائه عليهم السلام قال :

((قال النبي صلى الله عليه واله لعلي عليه السلام : يا علي ! واعلم أن أعظم الناس يقينا قوم يكونون في آخر الزمان ، لم يلحقوا النبي وحجب عنهم الحجة فآمنوا بسواد في بياض .))(٤)
علم الغيب

---

(١) المجادلة٢٢
(٢) البقرة ٥
(٣) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ١٢٣
(٤) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ١٢٥

تكميلاً للبحث، ينبغي أن نتحدَّث عن الآيات التِّي وردت في مجال علم الغيب فنقول: الآيات الواردة بخصوص علم الغيب على أقسام :
الأوَّل: التِّي تثبت لله تعالى العلم بالغيب و الشهادة وهي كثيرة، نشير إلى آية واحدة منها وتعتبر أهم الآيات في هذا المجال، قال تعالى:{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ }(١) وقد أثبتت صفة العلم المطلق لله تعالى لأنَّ علمي الغيب والشهادة أي جميع الحقائق والموجودات الظاهرية والباطنية كلياتها وجزئياتها، فهي معلومة له تعالى بالعلم الحضوري أي أنَّها في حاضرة لديه وهو الشهيد عليها قال تعالى:
{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ، أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(٢)
والتركيز على هذا المثال ينطلق من كون القرآن كتاب هدايةٍ للناس ، فيريد أن ينبِّههم على أنَّه عالم بكلّ ما يخطر في قلوبهم، لعلَّهم يفكِّروا في إصلاح أنفسهم . ولذلك يقول: { لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }(٣).
فالخبير المطلق علمه نافذٌ في كلِّ شيء والسر في ذلك هو ما في قوله تعالى: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ، وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }(٤)

---

(١) الحشر٢٢
(٢) المجادلة ٦-٧

(٣) الأنعام ١٠٣
(٤) الملك ١٢-١٤

فالذي خلق الأشياء ومنحها كلَّ ما تملك وهو الوجود، كيف لا يعلم ظاهرها وباطنها، فلا ظاهر لها عنده كما لا باطن لها، لأنَّه سبحانه وتعالى { هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }(١) فالأمر كلُّه راجع إليه { وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ...}(٢) .
الثاني: ما تبيِّن مصاديق لعلم الله تعالى وهي كثيرة، نشير إلى ثلاثة موارد منها:
١-{ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }(٣) فالذي يخطر في القلب يعلمه الله تعالى سواء كان سراً أو نجوى (وكلاهما من الغيب){ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ }(٤)والسر هو الحديث المكتم في النفس وهو غير ظاهر كما أنَّ النجوى أيضاً لم يظهر ولكن ربَّما يظهر ولهذا يقول { وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}(٥) وأعظم من ذلك قوله تعالى: { وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى }(٦).
فما هو الذي هو أخفى من السرّ؟!

---

(١) الحديد٣
(٢) هود ١٢٣
(٣) الملك ١٣،١٤
(٤) التوبة ٧٨
(٥) طه٦٢
(٦) طه٧

وقال تعالى: { وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا }(١)فرغم كونه عليماً ولكن بحلمه يستر المساوئ القلبيَّة ، ولا يفضح عباده ولكن الخطورة إنّما تواجه الإنسان إذ انعكست تلك الأمراض في تصرُّفاته، قال تعالى: { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ }(٢) ولا تفوتنَّك اللطافة المتواجدة في بيان "وَاعْلَمُوا" وتكرارها فالأولى تشتمل على تحذير وتهديد

وهو الخوف والثانية تشير إلى الغفران والحلم وهما يورثان الرجاء، فالعبد يعيش بين الخوف والرجاء، وهذه الحالة هي أفضل حالة للعبد في قبال ربِّه حيث تتوازن قواه ولا يشذّ عن الصراط السوي ، منحنا الله هذه النعمة، بلطفه ومنّه.

٢-{ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}(٣)

في الكافي عنه عن أحمد عن الحسين بن سعيد عن حماد بن عيسى عن حريز عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام في قول الله عز وجل: يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد قال :

((الغيض كل حمل دون تسعة أشهر ، " وما تزداد " كل شئ يزداد على تسعة اشهر ، وكلما رأت المرأة الدم الخالص في حملها، فإنها تزداد بعدد الأيام التي زاد فيها في حملها من الدم)) (٤)

تشاهد اختلاف ذيل هذه الآية عن الآيات السابقة { وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}(٥) فالقدر راجع إلى عالم الشهادة لا الغيب، والمثال من عالم الشهادة ولكنَّها قريبة من الغيب .

---

(١) الاحزاب٥١

(٢) البقرة ٢٣٥

(٣) الرعد٨

(٤) *****

(٥) الرعد٨

٣-قال تعالى: { عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}(١) والسر في ذلك أنَّه تعالى { بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ }(٢). والإحاطة هذه تسمَّى الإحاطة القيّومية وهي الإحاطة الحقيقيَّة .

٤-قال تعالى: { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }(٣)فهل يمكن أن يعطى بعض تلك المفاتيح لبعض أوليائه في حين من الزمان ؟! هذا ما سنجيب عنه إن شاء الله تعالى .

الثالث: الآيات النافية لعلم الغيب عن غير الله تعالى بصورة صريحة ، ولكنَّنا عندما نتدبَّر فيها، نشاهد أنَّها جميعاً قد أستثني فيها جماعةٌ وهم الذين يمكنهم معرفة الغيب ولكن بشرط واحد وهو: بإذن الله تعالى

وكلٌ ما في الأمر هو هذا الشرط ولو تجاهلناه لوقعنا في الورطة و الهلاك ، والذين في قلوبهم مرض من المنافقين، نراهم يتَّهموننا بأننا نعتقد أنَّ أئمتنا عليهم السلام يعلمون الغيب وهم يتغافلون عن هذا الشرط حقداً و جهلاً، فكيف يمكن لمن هو عارف بالقرآن ولو على مستوى بسيط، أن ينكر ذلك ، ونحن نشير إلى بعض الآيات الدالة على ذلك :

---

(١) سبأ٣

(٢) فصلت٥٤

(٣) الأنعام ٥٩

١-قال تعالى: { عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا }(١) فقد استثنى سبحانه "من ارتضى" عن سائر الناس وبيَّن السر في تعليم الرسل الغيب، وفي هذا المجال وردت أحاديث سوف نتطرَّق إليها عند تفسيرنا للآية إن شاء الله تعالى .

٢-قوله تعالى: { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ }(٢) فعلم رسول الله بالغيب إنما يكون بالوحي ولا بأس في ذلك. وقال تعالى: { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ }(٣)

٣-قال تعالى مخاطباً نبيَّه: { قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ}(٤)

---

(١) الجن ٢٦-٢٨

(٢) هود ٤٩

(٣) آل عمران ٤٤

(٤) الأحقاف٩

فهو (ص) ينفي عن نفسه علم الغيب لولا الوحي، لأنَّ الجاهليَّة كانوا يتوقَّعون منه أن يحقِّق ما يريدون كما تشهد لذلك الآيات الكثيرة وكانوا يقولون: { مَالِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا، أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا }(١) فهو(ص) كان يجيبهم بقوله: { قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}(٢) ولذلك كان يقول سبحانه وتعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ...}(٣)وكلّ شيءٍ يكمن في الوحي إليه صلوات الله عليه وآله المعصومين الذين جعلهم الله استمراراً لرسالته وحجَّةً على خلقه .

٣-هذا عيسى بن مريم عليه السلام يقول:{ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }(٤) ولا شك أنّ هذا الإنباء من الغيب كما قال تعالى في شأن يوسف (ع) { لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي }(٥) ومادام الله هو الذي علَّمه فلا إشكال في ذلك .

هذا:

---

(١) الفرقان٧،٨

(٢) الأعراف ١٨٨

(٣) الكهف١١٠

(٤) آل عمران ٤٩

(٥) يوسف ٣٧

وسوف نتحدَّث عن كلِّ آية من هذه الآيات تفصيلاً عند تفسيرها إن شاء الله . ندعو الله التوفيق والسداد والمعرفة والإستنارة بنور القرآن إنَّه كريم مجيب .

مواصفات المؤمنين

الآية قد بيَّنت أهم الأعمال الباطنيَّة والظاهرية للإنسان تجاه ربِّه وهي :الإيمان و الصلاة و الصدقة . ولهذه الأمور الثلاثة أهميَّة خاصة بين سائر العبادات بل هي (رغم انصبابها جميعاً في أمرٍ واحد وهو كمال الروح) أمُّهات الأفعال النفسانية و العبادات الجسمانيَّة و الماليَّة .

فالصلاة أساس جميع الحسنات والطاعات والتجنُّب عن المعاصي و الموبقات { وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ

الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ }(١) وكذلك الزكاة حيث أنَّها وسيلةُ الوصول إلى الإسلام . في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال :

((أوصيكم بالصلاة وحفظها فإنها خير العمل وهي عمود دينكم ، وبالزكاة فإني سمعت نبيكم صلى الله عليه وآله يقول : الزكاة قنطرة الإسلام فمن أداها جاز القنطرة ، ومن منعها احتبس دونها وهي تطفىء غضب الرب))(٢)

****

{وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ}

العطف

لقد وصف الله سبحانه المتقين بصفات بعضها ترجع إلى رؤيتهم وبعضها تتعلَّق بأعمالهم ، فأوَّل صفة لرؤيتهم الكونيَّة هي صفة الإيمان بالغيب – وقد مرَّ شرحه تفصيلاً – ثمَّ و على ضوء الإيمان بالغيب –وهو مقتضى العطف كما مرَّ– يقيمون الصلاة ، فالشأن كلّ الشأن إنَّما هو للإيمان بالغيب ، ومن هنا تعرف السرّ في تأكيد القرآن وأهل البيت عليهم السلام على النيَّة قبل العمل . وقد وردت أحاديث كثيرة على أنَّ أفضل العبادة بل أفضل الأعمال هو انتظار الفرج (٣) وهي تؤكِّد أنَّ لا قيمة للأعمال إلا من منطلق الانتظار .

---

(١) العنكبوت٤٥

(٣) بحار الأنوار ج ٧٧ ص ٤٠٧

((... قال أمير المؤمنين عليه السلام : انتظروا الفرج ولا تيأسوا من روح الله ، فإن أحبَّ الأعمال إلى الله عزَّ وجل انتظار الفرج ... و المنتظرُ لأمرنا كالمتشحِّطِ بدمه في سبيل الله))(١)

المادة (المحتوى)والهيئة(الصيغة)

إنَّ مفهوم الإقامة قد ذكر في القرآن الكريم بصيغ مختلفة مثل: "أقامَ ، أقم ، يقيمون ، مقيمين ، أقيموا ..." إلا أنَّ الآية المباركة قد ذكرت كلمة "يقيمون" و هي تشتمل على جانبين:

١–المادة:

ويعنون من المادة محتوى الكلمة من حيث المعنى اللغوي أو الاصطلاحي من دون النظر إلى شكلها ، وتكون دائما ذات معنى مستقلٍ في نفسه وفي الآية هي "الإقامة" وأنها مصدر باب الإفعال وأصله "قوم" فصارت "قام" و "يقوم" .

٢–الهيئة:

وهي شكل الكلمة وصيغتها وهي مختلفة في القرآن الكريم ، فربَّما تكون هيئة للفعل الماضي سواء كان مفرداً أم مثنّى أم جمعاً أو هي اسم فاعل أو مصدر كما مرّ .

وأمّا في الآية جاءت "يقيمون" على هيئة الفعل المضارع للجمع الغائب المذكَّر وهو شاملٌ للنسوة و الظاهر أنَّ التذكير إنَّما هو من باب التغليب .

والحاصل:

إنّ الكلمة المباركة أعني "يقيمون" بمادتها و بهيئتها تكون مرآةً و منظاراً لعشرات الآيات الأخرى المنتشرة في الكتاب المبين لأنَّه سبحانه وتعالى يقول: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ }(٢) فلابدّ أن نتدبَّر القرآن(٣) لنعثر على بعض الآيات التّي هي تفصيل للكلمة من الزاويتين المادَّة والهيئة فنقول:

إنَّ القرآن الكريم وبخصوص هذه العبادة المهمَّة أعني الصلاة يؤكِّد على أمرين رئيسيين أحدهما هو مفاد مادة "يقيمون" أعني الإقامة ، والآخر مفاد هيئة "يقيمون" أعني الفعل المضارع ، فالكلمة إذاً رغم صِغرها شاملة للمفهومين الرئيسيين .

الحفاظ على الصلاة

---

(١) بحار الأنوار ج ٥٢ ص ١٢٣

(٢) هود ١

(٣) من باب الذهاب دبر الشئ أي خلفه .

مادة الكلمة تؤكِّد على مسألة خطيرة تخص الصلاة وهي التّي أكَّد القرآن عليها في أربعة آيات ، آيتان منها ضمن بيان صفات المؤمنين وهما متشابهتان :

١-يقول سبحانه :{ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمْ الْوَارِثُونَ }(١)

٢-ويقول سبحانه : {وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ }(٢)

٣-وقال تعالى : { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ }(٣)

والحديث التفصيلي عن هذه الآيات في محلِّها إن شاء الله إلا أنَّنا نقول بأنَّ المتأمِّل في هذه الآيات الثلاثة، يلاحظ فيها نفس الأسلوب أو السياق الوارد في سورة البقرة ،حيث الحديث عن الإيمان و الآخرة والأمانة والعهد -ولا نريد بيان مفهومهما في القرآن هاهنا - وليعلم أنَّهما إشارة إلى الولاية

بملاحظة قوله تعالى :

{ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً }(٤)

فإذاً هناك تناسب بينها وبين ما مرّ من تفسيرنا لقوله تعالى : "يؤمنون بالغيب".

٤- قال تعالى :{ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ }(٥) وهذه الآية وردت في سياق الأمر الدالّ على التأكيد البالغ لأنَّ الصلاة في الآية على ما قالوا هي الواجبة خاصَّة ، ولكن مع ذلك هناك تناسب بينها باعتبار قوله تعالى : "قوموا لله قانتين" و بين قوله تعالى :"يقيمون الصلاة" غير أنَّ الفرق بينهما بالإجمال والتفصيل.

---

(١) المؤمنون ١٠

(٢) المعارج٣٤

(٣) الأنعام ٩٢

(٤) الاحزاب٧٢

(٥) البقرة ٢٣٨

التأمل في كلمة يقيمون

وأمّا كيفيَّة معرفة الحفاظ على الصلاة من قول "يقيمون" تتوقَّف على التأمُّل في الكلمة من حيث المحتوى والمادَّة ، فنقول:

قال الراغب في المفردات:

"قوم: يقال قام يقوم قياماً فهو قائمٌ و جمعه قيامٌ ، و أقامه غيره ...و قوله (يقيمون الصّلاة) أي يديمون فعلها و يحافظون عليها(ولا يخفى أنَّه قد استفاد المعنيين من الهيئة والمادة) و القيام و القوام اسمٌ لما يقوم به الشيء أي يثبت ، كالعماد و السّناد لما يعمد و يسند به ، كقوله : (و لا تؤتوا السّفهاء أموالكم التي جعل اللّه لكم قياماً) أي جعلها ممّا يمسككم . و قوله :(جعل اللّه الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) أي قواماً لهم ، يقوم به معاشهم و معادهم "

ولهذا قالوا:

إنَّ إقامة الصلاة تعني أداؤها بحدودها وفرائضها وواجباتها ، كما فرضت عليهم . يقال : أقام القوم سوقهم ، إذا لم يعطلوها من البيع والشراء . ومن هنا نقول : "قد قامت الصلاة".

قال تعالى :

{ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }(١)

---

(١) المائدة ٩٧

فلولا البيت لما استقرّ الناس على وجه الأرض كما أنَّ الله:{ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }(١)فهو الحافظ لكلِّ شيء تكويناً والكلُّ فقير إليه { مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}(٢)وقد اهتمَّ القرآن كثيراً بحفظ حدود الله { وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ }(٣)ونهى عن تعدِّي الحدود الإلهيَّة ، فقال:{ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ }(٤) و الجدير بالذكر ما ورد من التعبير في الآية حيث قال : "ألا يُقِيمَا حُدُودَ الله".

كيفية الحفاظ على الصلاة

وأمّا كيفيَّة الحفاظ ونطاقه فقد تطرَّق إليه الإمام الخميني –قدس سرُّه –في كتابه القيِّم الآداب المعنوية للصلاة حيث خصَّص له فصلاً مستقلاً – وهو الفصل الخامس – وعنوانه :"في بيان الحفاظ على العبادة من تصرف الشيطان "قال:

"من الآداب المهمة القلبية للصلاة وغيرها من العبادات ، الحفاظ عليها من التصرفات الشيطانية ، وهو في الوقت نفسه من أمهات الآداب القلبية والقيام به من عظائم الأمور ومشكلات الدقائق. ولعل الآية الشريفة في وصف المؤمنين : "الذين هم على صلواتهم يحافظون" ، إشارة إلى جميع مراتب الحفظ التي تكون إحداها بل أهمها ، الحفاظ عليها من تصرفات الشيطان "(٥) فراجع كلامه فإنَّه مفيد جدّاً.

ومن هذا المنطلق ، أصبح القيام مبدءاً لكلٍ من الركوع والسجود في الصلاة وصار القيام المتَّصل بالركوع – أي ما قبل الركوع – ركناً يبطل الصلاة بتركه عمداً أو سهواً .

محتوى القيام

ولا بأس أن نتحدَّث بعض الشيء عن محتوى القيام فنقول:

---

(١) البقرة ٢٥٥

(٢) هود ٥٦

(٣) التوبة ١١٢

(٤) البقرة ٢٢٩

(٥) الآداب المعنوية للصلاة***

(٦٦/١)

يتميَّز القيام عن سائر الأشكال الهندسيَّة لجسم الإنسان من الانحناء والتقوُّس ، فالقيام هي الحالة الطبيعيَّة للإنسان خاصة و لا تشاركه فيه أيُّ حيوان من الحيوانات ، ولهذا قالوا في تعريف الإنسان : أنَّه منتصب القامة . والقيام مقولة من مقولات الوضع ، يختلف عن الانحناء ، لأنَّ أعضاء الإنسان تستقرُّ في موضعها المتناسب ، فتبرز الصورة الحقيقيَّة للإنسان ، لأنَّه حين القيام يظهر بأكمله و تبرز جميع مواصفاته من ناحية الطول والعرض و سائر الأمور ويعرف جيِّداً من دون إبهام وغموض ، وإنَّ مركز الإدراك – أعني المخ – يكون في القمَّة والرأس فوق الجسم ،كما يعتمد الجسم على العمود الفقري وكلُّها تكون مستقرَّة على العمودين الرئيسيين الذين يمثِّلان مركز الثقل وهما الرجلان.

والأعصاب – حين القيام – تسهل عليها استقبال الأوامر ومن ثمَّ إرسالها إلى الأعضاء، فالعين والأذن واليد والرجل تتَّجه إلى أيِّ جهةٍ شاءت من غير صعوبة و إمعان ، حيث أنَّ الإرادة هي المسيطرة على الأعصاب والأعصاب على العضلات والعضلات على الفقرات ، فالتصرُّف يتحقَّق بسهولة تامَّة .

قيام البدن مرتبط بقيام الفكر والتصوير ، لأنَّه لولا التصوير الصحيح للشيء ، لما أراد الإنسان ذلك الشيء أصلاً ، ولولا الإرادة لما تحرَّك بدن الإنسان إلى جهة من الجهات .

(٦٧/١)

فالاستعداد للصلاة يتحقَّق عندما تكون لإرادة الله وأمره التأثير المباشر في حركة الإنسان وهي التي تحرِّكه و تثيره "وقد كان ملتهياً بحواسه الظاهرية المُلكيَّة وشهواته الحيوانيَّة" فعندما يسمع المصلي "قد قامت الصلاة " يتغيَّر كلُّ شيء حيث تعتدل قواه النفسانية كأعضائه الجسمانيَّة ، فيقع مركز التفكُّر والتعقل في أعلى مستوى من الإنسان ، ومع النزول إلى الأسفل – يأتي دور القلب الذي هو محلّ ظهور العواطف والأحاسيس ، وهكذا عندما ينزل قليلاً سوف يواجه المعدة التّي هي كالقِدر الذي يحتوي على الغذاء إشباعاً لشهوة الأكل ليس إلاّ ، ثمَّ الأمعاء وأخيراً الفرج الذي يمثِّل الشهوة الجنسيَّة الواقع في أسفل الجسم المستقرّ على القاعدتين أعني الرجلين .

فالإنسان بقيامه قد استقرَّ عوده و ثبتت قوائمه بادئاً من عالم الوحدة ومنتهياً إلى عالم الكثرة .

هذا :

كما أنَّ القيام يتجلّى في الصلاة جماعة لأنَّ الإمام العادل هو الذي يمثِّل مخّ المجتمع والمصلّون – رغم كونهم مقيمي الصلاة – يتبعونه في كافة تصرفاته من ركوعه وسجوده و حركاته وسكناته .

الدوام على الصلاة

وهو لا يقل أهمَّية عن ما سبق من الحفاظ عليه . وقد وردت في هذا المجال آيتان :

١–قال تعالى عن لسان عيسى بن مريم عليه السلام: { قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا* وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ؟وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا }(١)

فلم يحدِّد الزمان بل ينبغي له أداء الصلاة مادام حياً ، وأما بعد الموت ، فالأمر يختلف تماماً فربَّما يكون الإنسان هو مظهراً للصلاة كما تدل على ذلك الأحاديث الشريفة بل بعض الآيات المباركة ، فدرجات الكمال والنقص في عالم الجبروت هو الإنسان نفسه . قال تعالى:{ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ }(٢)

---

(١) مريم ٣٠–٣١

(٢) آل عمران ١٦٣

٢–قال تعالى :{ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا* إِلاَّ الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ* وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ* وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ }(١)

والهلوع هو الشديد الحرص و الشديد الجزع(٢) والآيات تبيِّن اضطراب هذا الإنسان وعدم استقراره الفكري و ثباته الروحي ثمَّ تستثني جماعةً واحدة فقط وهو المصلُّون ولكن بشرطٍ مهمّ وهو{ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ}(٣) وسياق هذه الآيات سياق آيات سورة البقرة فتأمّل.

و مفاد هيئة "يقيمون " أعني الفعل المضارع هو الاستمرار والمداومة وقد مرَّت الإشارة إلى ذلك من كتاب المفردات أيضاً فراجع ،ونعني بالدوام المواصلة من أجل إقامة الصلاة على مستوى الفرد وعلى مستوى المجتمع ، فهي إذاً تساوق الآيتين غير أنّها محكمة وتلك مفصَّلة.

ولا يخفى عليك أنَّ الاستمرارية ليست خصوصيةً للفعل المضارع فحسب ، بل شاملة لاسم الفاعل و المفعول وبعض الصيغ الأخرى بفوارقٍ ليس هنا موضع بيانها . قال تعالى:

{وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا}(٤)

والنتيجة:

أنَّ كلمة "يقيمون" بمادتها تشير إلى المحافظة على الصلاة وبهيئتها تشير إلى الدوام عليه.

التوحيد الأفعالي و الشرك

شدَّد الله سبحانه في أمر الصلاة في آيات كثيرة –نتحدَّث عنها تفصيلاً عند تفسيرها إن شاء الله تعالى– وأما في هذا البحث فنذكر بعض تلك الآيات .

قال تعالى:

---

(١) المعارج ١٩-٢٦

(٢) مجمع البيان ج ٥ ص ٣٥٥

(٣) المعارج٢٣

(٤) النساء ١٦٢

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ* مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ* مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ*وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}(١)

والآية تعلَّق قبول الدين على إقامة الصلاة لأنَّها تخاطب من لم يتَّق ولم يُقم الصلاة بأنَّه من المشركين .ثمَّ تبين نتائج الشرك ، والظاهر أنَّ هذا الشرك هو الشرك في الفعل ، والشاهد عليه قوله تعالى :"وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ ..." إلى آخر الآية ، وإن كان يوجب الرياء الذي هو الشرك في العبادة كما في السورة الآتية.

وسورة الماعون تشبه تلك الآية المباركة ، حيث بدأت ببيان المكذِّبين للدين ، فقالت:

{ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ* فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ }(٢)

فالساهي في صلاته يعيش التزلزل والاضطراب وعدم القيام والرياء وبالنتيجة البخل وسائر المفاسد الأخلاقية و العمليَّة .

---

(١) الروم٣٠-٣٣

(٢) الماعون١-٧

وكذلك الكسلان غير المداوم على الصلاة حيث قال: { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً }(١) ولعلَّ إلى هذا النوع من الشرك أشار سبحانه وتعالى: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ }(٢)

ومن هذا المنطلق ،نعرف ما قد تطرَّق إليه الإمام – قدِّس سرّه – في بيان سرّ القيام في الصلاة حيث قال: "اعلم أن أهل المعرفة يرون القيام إشارة إلى التوحيد الأفعالي ، كما أن الركوع عندهم إشارة إلى التوحيد الصفاتي والسجود إلى التوحيد الذاتي ، ويأتي بيانها في محلّهما ، و أما بيان أن القيام إشارة إلى التوحيد الفعلي هو أن نفس القيام إشارة إلى هذا وضعا وفي القراءة إشارة إليه لفظا . أما أن القيام فيه إشارة إليه وضعا ، هو أن القيام إشارة إلى قيام العبد بالحق ومقام قيّوميّة الحق وهو التجلّي بالفيض المقدّس والتجلي الفعلي ، وتظهر في هذا المقام فاعلية الحق وتستهلك جميع الموجودات في التجلي الفعلي وتضمحل تحت كبريائه الظهوري ... إلى آخر ما قال"(٣)

النافلة أم الفريضة

ومما شرحنا يمكنك أن تعرف المقصود من الصلاة في "يقيمون الصلاة" هل هي الفريضة خاصَّة أم تشمل النافلة أيضا؟

قيل أن الألف واللام للعهد وهي إشارة إلى الصلوات الخمس ، ولكن الظاهر أن كلمة الصلاة مطلقة تشمل الفريضة والنافلة ، والآية الآتية تشير إلى صلاة الليل التي هي من النوافل ، قال تعالى: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ*أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ }(٤)

---

(١) النساء ١٤٢

(٢) يوسف١٠٦

(٣) الآداب المعنوية للصلاة ***

(٤) السجدة١٦-١٨

وعلى ضوء ما ذكرنا في تفسير "يقيمون الصلاة" وملاحظة الحديث التالي تذعن بصحَّة ما قلنا ((وبهذا الإسناد ، عن حريز ، عن الفضيل قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز

وجل : " الذين هم على صلواتهم يحافظون " قال : هي الفريضة ، قلت : " الذين هم على صلواتهم دائمون " قال : هي النافلة))(١)

غاية الصلاة

الغاية الأخيرة من كلِّ شيء هي الصلاة بما هي صلاة أعني الذكر وهو المعرفة . قال تعالى: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}(٢)

وهناك سر في ذكر " وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ" في آخر الآية ليس هنا محل بيانه وكذلك في قوله تعالى: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ *وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ }(٣) ولعلَّك مع التأمُّل في آخر الآية الثانية وربط الآية بالآية التالية تعرف شيئاً من ذلك :{ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ }(٤)

وقد مرَّت الإشارة إلى الآية في تفسير سورة الفاتحة فراجع

****

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }(٥)

---

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٦٩

(٢) الحج٤١

(٣) لقمان٢٢-٢٤

(٤) البقرة ١٢٦

(٥) البقرة ٣

القسم الأخير من الآية المباركة هي ثمرةٌ جنيَّة للمؤمنِ بالغيب و المقيمِ الصلاة، لأنَّ الإنسان كالبذرة المهيَّأة والمستعدَّة التي لو وضعت في أرض قابلة للزراعة لانشقَّت وغرست جذورها فتفتَّحت وأثمرت، فالثمار إذاً ليست إلا نتيجة لاستحكام الجذور و صلابة العود.

والإيمان بالغيب هو الذي يمثِّل باطن الإنسان الذي يظهر في إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله ، ثمرتان ذات أُكلٍ دائم أحدهما يترجح فيه الجانب الروحاني أعني البطون و الأخرى لها ظهور أكبر في المجتمع الإسلامي وهي نابعة من تلك الروح الصافية.

الرزق و الإنفاق

الإطِّلاع على معنى الكلمتين (الرزق–والإنفاق) ضروري لمن أراد أن يعرف الأسرار المكنونة في الآية المباركة.

أمّا الرزق: فهو كما صرح اللُغويون يطلق على أمور ثلاثة:

١–العطاء الجاري سواء كان دنيوياً أم أخرويا.

٢–النصيب والحظ.

٣–ما يصل إلى الجوف ويُتغذى به.

وقد استعمل القرآن الكريم هذه الكلمة في جميع تلك الموارد :

فقال تعالى:{ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنْ الصَّالِحِينَ }(١) والمقصود ما هو أعمّ من المال والجاه والعلم و غيرها كما سيأتي.

فالمعنى الثاني أعني الحظ والنصيب ففي قوله : { وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}(٢) أي وتجعلون نصيبكم من النعمة تحرى الكذب.

وقال تعالى في الثالث أي الطعام الذي يتغُذّى به :{...فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا }(٣)

---

(١) المنافقون ١٠

(٢) الواقعة٨٢

(٣) الكهف١٩

وأمّا قوله تعالى:{ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ* فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ }(١) قيل عنى به المطر الذي به حياة كلّ ذي حياة.

وأما: بالنسبة إلى الأرزاق المعنويَّة غير الدنيوية ،فقال سبحانه:{ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى }(٢)

وأمّا بخصوص العطاء الأخروي ، قال: { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ }(٣) وهذا الرزق يتعلَّق بالروح في عالم البرزخ، وأمّا القيامة ففي قوله تعالى :{ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا }(٤)

أمّا الإنفاق : قال الراغب في المفردات:

"نفق الشيء مضي ونفد، يَنْفُقُ إمّا بالبيع نحو نفق البيع نفاقا، ونفق القوم إذا نفق سوقهم. وإمّا

بالموت نحو نفقت الدابة نفوقا. وإمّا بالفناء نحو: نَفَقَت الدراهم تنفق وأنفقتها"

أقول:

من لطائف اللغة العربية أنَّ كلَّ صيغة تشتمل على (النون والفاء) تدلُّ على الذهاب و النفاد والخروج وما شابهها مثل: نَفَرَ، نَفَعَ، نَفَسَ، نَفَثَ.

والقرآن قد أطلق الإنفاق في المال وفي غيره ، قال تعالى:

{وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ }(٥) وأيضاً استعمل الكلمة في الواجب والمستحبّ.

على ضوء ما ذكرنا في معنى الكلمتين و استعمالهما سوف نشرع في التأمَّل في القسم الأخير من الآية المباركة حيث قال:{... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }(٦).

---

(١) الذاريات٢٢-٢٣

(٢) طه١٣١

(٣) آل عمران ١٦٩

(٤) مريم٦٢

(٥) البقرة ١٩٥

(٦) البقرة ٣

والكلام يقع في أمورٍ خمسة مستفادة منها و هي:

١-"من" التبعيضيَّة الداخلة على "ما".

٢-"ما" الموصولة التي هي في محلِّ الجر بمِنْ .

٣-"الرزق" المستفاد من كلمة "رزقناهم".

٤-الضمير "نا" في "رزقناهم".

٥-مفهوم "الإنفاق" وإطلاقه.

الأمر الأوَّل

قوله تعالى: {... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }(١) يشتمل على "مِنْ" و"مَا" حيث قلبت النون إلى الميم فأدغمت فيها.

والجدير بالذكر أنَّه ليست القاعدة سارية في جميع القرآن، بل مثل هذه القواعد الصرفيَّة رغم جريانها في اللغة العربيَّة، لا تحكُم القرآن الكريم أصلاً، ولهذا نشاهد انفصالهما في آية واحدة فحسب وهي

في سورة المنافقون حيث قال { وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ... }(٢)ولمثله نماذج كثيرة في موارد أخرى ، وهذا من أسرار القرآن الكريم الراجع إلى علم الحروف و الأعداد الذي ليس هنا مجال للحديث عنه ، فليطلب في محلِّه.

والظاهر أنَّ "من" هذه للتبعيض كما في قوله تعالى: { رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ...}(٣)

فكلا الميمين في الآية المباركة يدلاّن على التبعيض لأنَّ إبراهيم (ع)قد نزل ببعض الذرِّية إلى تلك الأرض المقدَّسة ، كما أنَّه طلب من الله أنَّ تتعلَّق أفئدة بعض الناس إليهم وقد استجيب الدعاء حيث تعلَّقت أفئدة جماعة خاصة من المسلمين بذريتِّه أعني محمَّد وآله وهم المحبُّون فحسب.

وعليه المقصود من قوله "ممّا رزقناهم ينفقون" أي بعض الذي رزقناهم لا كلّه، وهذا هو الاقتصاد في الإنفاق والمصرف الذي يؤكِّد عليه الكتاب والسنَّة تأكيداً بالغاً .

ومن أجل الوصول إلى جميع زوايا هذه المسألة سوف نوردها مع شيءٍ من التفصيل فنقول:

حدود الإنفاق

---

(١) البقرة ٣

(٢) المنافقون ١٠

(٣) إبراهيم٣٧

لو أردنا أن نعرف نطاق الإنفاق و حدوده ، ينبغي أن نتساءل عن حرف "من" التبعيضيَّة حيث أنَّها لم تحدِّد النسبة المئوية للإنفاق فلسائل أن يسأل :

ما هو المقدار الذي ينبغي أن يُنفق المؤمنُ من ماله ؟وهذا السؤال لا يتأتّى في النفس والولد بل حتَّى العلم ، الذي هو من موارد الإنفاق كما سيأتي .

وهناك حديث طويل جدّاً نقله الكليني (١)رحمه الله عن علي بن إبراهيم ، عن هارون بن مسلم ، عن مسعدة بن صدقة قال : دخل سفيان الثوري على أبي عبدالله عليه السلام فرأى عليه ثياب بيض كأنها غِرْقِئُ البيض(٢) فأشكل عليه وقايسه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم ، و لاثبات مدَّعاه استند بآيات، فأجاب عليه السلام بجواب جامعٍ يشتمل على فوائد كثيرة، ينبغي بيانها مع شيء من التفصيل فنقول:

دور الزمان و المكان

بالنسبة إلى رسول الله (ص) فكان للزمان والمكان دور رئيسي في تصرُّفاته كقدوة وأسوة للمجتمع :

((فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعيش في زمان مقفر جدب)) (٣)فإذاً هذا أمرٌ طارئ لا يمكن تعميمه أصلاً بل ينبغي التوجُّه إلى القاعدة العامَّة .

القاعدة العامّة

وهناك قاعدة عامَّة ينبغي التوجُّه إليها ، وعلى ضوئها تفسَّر سائر الآيات ، والقاعدة في هذا الأمر قد بيِّنت في قوله تعالى:

{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِن الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ }(٤)

وقد تطرَّق الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة حيث قال:

((إذا أقبلت الدنيافأحق أهلها بها أبرارها لافجارها ، ومؤمنوها لامنافقوها، ومسلموها لا كفارها)) (٥)

---

(١) الكافي ج ٥ ص ٦٥ الرواية ١

(٢) القشرة الملتزمة ببياض البيض آو البياض الذى يؤكل .

(٣) الكافي ج ٥ ص ٦٥ الرواية ١

(٤) الأعراف ٣٢

(٥) الكافي ج ٥ ص ٦٥ الرواية ١

وأمّا :

سائر الآيات في هذا المجال فينبغي أن تجمع فهي تفسِّر بعضها بعضاً ، ولذلك خاطب عليه السلام الناس فقال:

((أيها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضل من ضل وهلك من هلك من هذه الامة ؟)) (١)

والآيات في هذا المجال على طوائف:

الأولى : التّي تبيِّن سيرتهم عليهم السلام وأنَّهم كانوا يعانون الشدة و الضيق في العيش ، يؤثرون على أنفسهم وأهمُّها آيتان استند إليهما جماعة سفيان الذين كانوا ينقاشون الإمام عليه السلام:

١–قوله تعالى :{ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ }(٢)

والآية نزلت في شأن علي عليه السلام و الصديقة الكبرى فاطمة سلام الله عليهاكما في أمالي شيخ الطائفة قدِّس سرُّه بإسناده إلى أبي هريرة قال:

((جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وآله فشكا اليه الجوع فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيوت أزواجه فقلن : ما عندنا الا الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من لهذا الرجل الليلة ؟ فقال على بن أبى طالب عليه السلام : أنا له يا رسول الله وأتى فاطمة عليها السلام ، فقال لها : ما عندك يا ابنة رسول الله ؟ فقالت : ما عندنا إلا قوت العشية لكنا نؤثر ضيفنا ، فقال عليه السلام : يا ابنة محمد نومى الصبية و اطفئي المصباح ، فلما أصبح على عليه السلام غدا على رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره الخبر فلم يبرح حتى أنزل الله عزوجل : " ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون"))(٣)

٢- قوله تعالى: { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا }(٤)

وشأن نزول الآية معروفة ، وقد اتفق القوم على أنَّها نزلت فيهم عليهم السلام .

---

(١) المصدر السابق

(٢) الحشر ٩

(٣) المصدر السابق

(٤) الإنسان ٨

الثانية : التي تحدِّد مستوى الإنفاق بأن لا يخرج من حدِّ الإفراط والتفريط و قد وردت آيتان:

١-ما تبيِّن فيها صفات عباد الرحمان حيث قال تعالى: { وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا }(١)

في الكافي حديث عن عبد الله بن سنان يحدِّد فيه مستوى الإنفاق الذي لا يجرُّ إلى الإسراف وهو تجاوز الحدّ ، و لا الإقتار وهو التقليل في النفقة ، فقال:

((القوام ما يخرج من بين الأصابع ويبقى في الراحة منه شئ))

٢-قال تعالى: { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا }(٢)

وقيل في معنى الحسر الإعياء و الكلّ (٣)والانقطاع، والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر، وفي الحديث قال :((الاحسار الفاقة)).

ترك المباح

قال الإمام عليه السلام:

((فأما ماذكرتم من إخباراالله عز وجل إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم ، فقد كان مباحا جائزا ولم يكونوا نهوا عنه و ثوابهم منه على الله عزّ وجلّ))(٤)

أقول:

---

(١) الفرقان٦٧

(٢) الإسراء٢٩

(٣) وقد وردت أحاديث كثيرة في ذمِّه ((عن القاسم بن الربيع في وصيته للمفضل بن عمر قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : استعينوا ببعض هذه على هذه ولا تكونوا كلولا على الناس)) الكافي ج ٥ ص ٧٢ ((عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ملعون ملعون من ألقى كله على الناس ، ملعون ملعون من ضيع من يعول)) الكافي ج٤ ص ١٢

(٤) *****

مضافاً إلى أنَّ الوصول إلى تلك المقامات من الصبر ليس في وسعنا نحن ، ومن هنا أكَّد سبحانه على صبرهم المنقطع النظير حيث قال : { وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا }(١) وهذا النمط من الصبر هو الذي كان له دور في ولايتهم التكوينية على الكون {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ }(٢)

لا ضرر و لا ضرار

ثمَّ إنَّ الإمام الصادق عليه السلام قد بيَّن تكليف سائر الناس في قبال النعم الإلهيَّة وشرح فلسفة ذلك ، حيث قال:

((وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين ونظرا لكيلا يضروا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضعفة الصغار والولدان والشيخ الفاني والعجوز الكبيرة الذين لايصبرون على الجوع ، فإن تصدقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعا))(٣)

وأنت تلاحظ أنَّه عليه السلام يركِّز على الإضرار بأنفسهم و عدم صبرهم على الجوع وهذه العلَّة متى وُجدت ، وجد الحكم ومتى فقدت ، زال الحكم.

فالمجاهد نفسه الذي يعبِّر عنه تعالى { وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ...}(٤) قد أوصل نفسه إلى مرتبة سامية من الروحانيَّة بحيث يسهل عليه تحمُّل الجوع و العطش من غير أن يضرَّ بنفسه.

ثمّ إنَّ الإمام عليه السلام قد اعتمد على أحاديث عن رسول الله (ص) تعزيزاً لما بيَّنه :

١-((قال رسول الله صلى الله عليه واله : خمس تمرات أو خمس قرص أودنانير أودراهم يملكها الانسان وهويريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه ، ثم الثانية على نفسه وعياله ، ثم الثالثة على قرابته الفقراء ، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء ، ثم الخامسة في سبيل الله وهو أخسها

أجرا)) (٥)

---

(١) الإنسان ١٢

(٢) السجدة٢٤

(٣) المصدر السابق

(٤) الحشر٩

(٥) المصدر السابق

٢- ((قال رسول الله صلى الله عليه واله للانصاري حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار : لو أعلمتموني أمره ، ماتركتكم تدفنوه مع المسلمين ، يترك صبية صغارا يتكففون(١) الناس))(٢)

ثمَّ ذكر حديثاً عنه (ص) يبيِّن فيه أصناف الناس الذين لا يستجاب دعاؤهم وهم ستَّة :

رابعهم :

((رجل يقعد في بيته ويقول : رب ارزقني ولايخرج ولا يطلب الرزق ، فيقول الله عزو جل له : عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة فتكون قد اعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري ولكيلا تكون كلّاً على أهلك ، فإن شئت رزقتك وإن شئت قترت عليك وأنت غير معذور عندي)) (٣)

وخامسهم:

((ورجل رزقه الله مالا كثيرا فأنفقه ثم أقبل يدعو يا رب ارزقني ، فيقول الله عزوجل : ألم أرزقك رزقا واسعا فهلا اقتصدت فيه كما أمرتك ولم تسرف وقد نهيتك عن الإسراف)) (٤)

ثمَّ جعل عليه السلام يفسِّر الآية التالية :

{ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا }(٥)

((إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال ، كنت قد حسرت من المال))

فالإنفاق بجميع ما لدى الإنسان سوف يمنع من الإنفاق ، فالإستمرارية في الإنفاق تقتضي أن لا ينفق جميع ما لديه.

ثمَّ أشار عليه السلام إلى زهد سلمان وأبي ذر قال:

((وأمّا سلمان فكان إذا أخذ عطاه رفع منه قوته لسنته)) (٦)

الزهد

المعتبر في الزهد وعدمه ليست امتلاك المال و عدم امتلاكه بل هو أمر قلبي ، فمن لم يكن متعلِّقاً بالمال فهو الزاهد وإن كان يمتلك شرق الأرض و غربها ، ومن هذا المنطلق نشاهد أنَّه عليه السلام يخاطب هؤلاء النفر فيقول:

---

(١) تكفف إذا سأل كفاً من الطعام

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق

(٥) الإسراء٢٩

(٦) المصدر السابق

((واعلموا أيها النفر أني سمعت أبي يروي عن آبائه عليه السلام : أن رسول الله صلى الله عليه واله قال يوما : ما عجبت من شيء كعجبي من المؤمن أنه إن قُرض جسدُه في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له وإن ملك ما بين مشارق الارض ومغاربها ، كان خيرا له وكل ما يصنع الله عز و جل به، فهو خير له)) (١)

ثمَّ ذكر سيرة بعض الأنبياء فقال:

((أخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام حيث سأل الله مُلكاً لاينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله جل اسمه ذلك وكان يقول الحق ويعمل به ، ثم لم نجد الله عز وجل عاب عليه ذلك ولا أحدا من المؤمنين ، وداود النبي عليه السلام قبله في ملكه وشدة سلطانه ثم يوسف النبي عليه السلام حيث قال لملك مصر : " اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم "))(٢). انتهى توضيح الحديث.

الموقف المثالي

هناك معيار دقيق قد بيَّنه سبحانه في الآية التالية حيث تشتمل على أمور أربعة هي أساس الاقتصاد ، قال تعالى:

{ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}(٣)

الآية بيَّنت أهم الأسس التِّي ينبغي مراعاتها في هذه الدار وهي:

١-أن ما أوتي الإنسان هي وسائل للوصول إلى الدار الآخرة ، فينبغي لها أن ينظر إليها بهذا المنظار فيجعلها جميعاً وسائل للوصول إلى الدار الآخرة.
٢-أن لا ينسى نصيبه المقدَّر في الدنيا ، فلا يغفل عنه ، بل يبحث للوصل إليه .
٣-أن يحسن إلى المجتمع و الأفراد بل إلى كلّ شيء حتَّى الجمادات انعكاساً لإحسان الله إليه ، والإحسان لكلِّ شيء بحسبه ، وهذا هو حقيقة الشكر الذي يزيد النعم.
٤-عدم الرغبة بالنسبة إلى الفساد في الأرض.

---

(١) المصدر السابق
(٢) المصدر السابق
(٣) القصص٧٧

ومن هذا المنظار نعرف السرّ في حرمة كلٍّ من الإسراف و البخل والسر في التحريض على الإقتصاد ، لذلك ينبغي أن نتطرَّق إلى هذين المفهومين بنحو موجز فنقول:

الإسراف

وهو التجاوز عن الحدّ ، و قد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم في موارد كثيرة وهي لا تعني الإسراف بالمعنى المتعارف في الأمور المادِّية إلا في الآية ١٤١ من سورة الأنعام وأيضاً قوله تعالى:

{يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}(١)

والآية الكريمة مضافاً إلى أنَّها تنهى عن الإسراف ، تجوِّز الاستفادة من زينة الله والطيبات من الرزق وأنَّها للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، وبالفعل لا يحس بطيب الرزق إلا المؤمن الذي يحظى بجانب روحي وبعد معنوي.

البخل والشح

و هو أمرٌ مذموم جداً بل هو من أقبح الصفات . قال في مجمع البيان:

((وفي الحديث : لا يجتمع الشح والإيمان في قلب رجل مسلم، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف رجل مسلم)) (٢).

الشح أشد قبحاً من البخل لأن البخيل يبخل بما في يده والشحيح يشح بما في أيدي الناس وعلى ما

في يده، حتى لا يرى في أيدي الناس شيئا إلا تمنى أن يكون له بالحلّ والحرام، ولا يقنع بما رزقه الله عز وجل...وحرام على الجنة أن يدخلها شحيح. وقد هدَّد سبحانه البخلاء بقوله:

---

(١) الأعراف ٣١-٣٢

(٢) *****

{وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }(١)إنتهى الأمر الأوَّل.

الأمر الثاني

إنَّ الآية المباركة لم تعيِّن الشيء الذي ينبغي أن ينفق ، بل قالت : { وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ }(٢) فاستخدمت "ما" الموصولة، الدالة على العموم من جميع النواحي فهي بعمومها تدلُّ على أمرين:

١- إنَّ الإنفاق لا يشترط فيه أن يكون كثيراً أو قليلاً بل الميزان هو "ما رزقناهم" وقد صرَّح الله تبارك وتعالى بذلك في قوله:

{ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ... }(٣)

فالآية وإن وردت في شأن المطلَّقة ذات حمل حيث يقول سبحانه في الآية التي قبلها {...وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ...}(٤) إلاَّ أنَّها قد انتقلت إلى قاعدة عامَّة حيث قالت بعد " فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ": {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا }(٥).

٢-إن الإنفاق لا يختص بالمال بل يشمل كافة الأرزاق الإلهيَّة، و الجملة أعني "رزقناهم" هي صلة الموصول وهي بصدد تبيين المقصود من "ما" الموصولة، وهذا شأن كلّ صلة. فما هو الرزق الإلهي ؟ هذا ما سنبيِّنه في الأمر الثالث و الرابع.

الأمر الثالث

---

(١) آل عمران ١٨٠

(٢) البقرة ٣

(٣) الطلاق٧

(٤) الطلاق٦

(٥) الطلاق٧

الرزق عامٌ يشمل كافة الأمور ذات المنفعة وقد مرَّ أنَّه يشمل العطاء الجاري سواء كان دنيوياً أم أخرويا. ولهذا يقولون رزقه الله داراً و عقاراً وولداً و علماً، وإنفاق كلِّ شيء بحسبه فالمال يُنفق لمساعدة المحتاجين، والجاه لقضاء حوائج الناس والعلم لإخراج الجاهل من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة . وفي الحديث "مما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون"(١)

الأمر الرابع

إن الضمير "نا" في "رزقناهم" يشير إلى أنَّ الرزق لا بدَّ وأن يكون من الله تعالى، وهو إشارة إلى الرزق في هذا العالم الذي هو موطن الإنفاق لا عالم الآخرة ، حيث لا مجال هناك للعمل بل هو دار الحساب . ولتوضيح المقصود ، ينبغي أن نبيِّن موارد استعمال الرزق في القرآن فنقول:

القرآن الكريم قد أطلق الرزق تارة على الرزق المعنوي وأخرى على الرزق المادي :

الرزق المعنوي

وهذا الرزق لا يتناسب و جسم الإنسان بل مرتبط بروحه سواء في عالم المُلك أم البرزخ أم الآخرة ، ويشتمل على خصوصيّات غير متوفِّرة في الرزق المادي، وبما أنَّ هذه الدنيا دار الهبوط فليست هي محلاً للإرتزاق بمثل ذلك الرزق إلا للصفوة من الناس وذلك في حالات خاصة، فقد ورد قال تعالى في شان الصدِّيقة مريم (ع) :

{...كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }(٢)

ومن المعلوم أنَّها كانت تُستطعم بموائد سماوية، وسوف تأتي في سورة البقرة كيفيَّة ارتزاق بني إسرائيل من هذا النمط من الرزق في تفسير قوله تعالى:

{ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا...}(٣)

قال العلاّمة المجلسي رحمه الله:

---

(١) *****

(٢) آل عمران ٣٧

(٣) البقرة ٥٨

"إنَّ الوصال في الصوم ، كان مباحا للنبي صلى الله عليه واله ، وحرام على أمته ، ومعناه أنه يطوي الليل بلا أكل وشرب مع صيام النهار ، لا أن يكون صائما ، لان الصوم في الليل لا ينعقد ، بل إذا دخل الليل صار الصائم مفطرا إجماعا ، فلما نهى النبي صلى الله عليه واله أمته عن الوصال قيل له : إنك تواصل ، فقال :((إني لست كأحدكم ، إني أظل عند ربي يطعمني ويسقيني))"(١).

فهذا الرزق من الطعام والشراب ليس هو رزقاً ماديّاً بل هو رزق معنوي روحاني لا يعرفه إلاّ من حظي به.

((وقال أبو الحسن الاول عليه السلام : قيلوا فان الله يطعم الصائم ويسقيه في منامه))(٢)

وهذا النوع من الرزق يمنح به المؤمن بغير حساب ، قال تعالى { لِيَجْزِيَهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ }(٣)

فليس هو مقابل العمل بل أعلى منه ، مضافاً إلى أنَّه لا حدّ له ، فهذه طبيعة الأمور المعنوية المجرَّدة عن المادة، قال تعالى : { مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ }(٤)

وهو الرزق الحسن الذي ورد في قوله تعالى: { وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ }(٥)

---

(١) بحار الأنوار ج ١٦ ص ٣٨٩

(٢) بحار الأنوار ٩٦ ص ٢٩٠

(٣) النور ٣٨

(٤) غافر ٤٠

(٥) الحج٥٨

ومن الواضح أنَّه رزق معنويٌّ للروح الإنسانيّة في عالم البرزخ والقيامة، ولو فرض تعلُّقه بالبدن ، فهو متعلِّق بالبدن البرزخي أو الأخروي ، وقد شرح سبحانه في الآية التِّي بعدها ماهية ذلك الرزق الحسن- حيث قال: { لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ }(١)

وينبغي أن نتأمَّل في هذا المقام العظيم أعني "الرضوان الإلهي" فقد ركَّز عليه سبحانه في كثير من الآيات بتعبيرات وصيغ مختلفة مثل: " مرضاة الله، رضوان الله، رضوان من الله، مرضاتي، رضوانه "

والجدير بالتأمل أنَّه تعالى يعبِّر عن هذا المقام بأنَّه هو الفوز العظيم ، فقال: { قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }(٢)

وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }(٣)

وهذا هو مقام "الخلود وجنّات عدن ومساكن طيِّبة وهو البشرى للمؤمنين" وقد دلَّت على ذلك آيات كثيرة ستأتي في محلِّها إن شاء الله.

وهذا الرزق هو الرزق الكريم المذكور في قوله تعالى : { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }(٤) ولا يخفى أنَّ الوصول إلى هذا المقام والإرتزاق بالرزق الكريم ، يتطلَّب "مغفرة" من الله ، كما قال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }(٥)

---

(١) الحج٥٩

(٢) المائدة ١١٩

(٣) التوبة ٧٢

(٤) سبأ٤

(٥) الأنفال ٧٤

هذا:

وإنَّ هذا النمط من الرزق محرَّم على الكافرين حرمة تكوينيَّة قبل أن تكون تشريعيَّة، أي أنَّهم لا يتمكَّنون من الارتزاق به، قال سبحانه :{ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ }(١)

الرزق المادي

بسط الرزق وقدره :

القرآن الكريم يؤكِّد على أنّ الرزق الدنيوي ليس هو ميزان صلاح الفرد أو فساده ، وأيضاً لا يدل على إكرام الإنسان أو إهانته: { فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ *وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ...}(٢) وهذه "كلاّ" تضرب بوجه هؤلاء ضعيفي العقيدة بالله وتنفي كلَّما قالوه .

فينبغي أن لا يفرح الإنسان بالنعم الدنيوية مهما كثرت: { وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا...}(٣) والتعبير "بأذقنا " يدلُّ على قصر أمده.

يقول سبحانه في قصة قارون :{...إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ }(٤) وقال تعالي: { اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ }(٥)

ولكن نشاهد أنَّه تعالى عندما يذكر مواصفات الشهداء في عالم البرزخ يقول :{ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...}(٦) وكم فرقا بين المقامين !

والذي يتحكَّم في هذا النمط من الرزق –أعني الدنيوي–ليس هو إلا العلم الإلهي ، كما قال تعالى:

---

(١) الأعراف ٥٠

(٢) الفجر ١٥-١٦

(٣) الروم ٣٦

(٤) القصص ٧٦

(٥) الرعد ٢٦

(٦) آل عمران ١٧٠

{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(١) فمن رأى سبحانه أن يبسط الرزق له فعل، على أنَّه بيَّن قيمة الحياة الدنيا في الآخرة في الآية السابقة وأنَّه متاع . ويقول في موطن آخر {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}(٢) فكل شيءٍ مرتبط بالدنيا سوف ينصبغ بها ، أي تكون من اللهو واللعب ومن شأنهما العبثية وعاقبتها الفناء و الزوال. كما أنَّ كلَّ ما هو من أمر الآخرة ، فله الحيوية و النضج و السموّ بل التكامل إلى ما لا نهاية .

ومن هذا المنظار ينبغي أن ننظر إلى الأرزاق المادية ، لنتمكَّن من تفسير الآيات الواردة فيها ، فلو تغاضينا عن هذه النظرة ، لتورطنا في مفاهيم لا يمكن تبريرها أصلاً.

رزق الله

للعيش في هذه الدنيا يفتقر كل حي إلى رزق يتناسب معه وهو أقلّ القليل من الرزق، وقد تكفَّل سبحانه بذلك حيث قال:

{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }(٣)

والتعبير بقوله "على الله" يدلُّ على أنَّه تعالى قد تكفَّل بذلك وضَمِن، وقال :{ وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }(٤)

وبالنسبة إلى الإنسان خاصة قد ورد تعبيرٌ محكمٌ للغاية ، حيث قال: { وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ* فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ }(٥) والآية تؤكِّد على أنَّ هذا الرزق لا يتخلَّف أصلاً ، بل هو حقٌّ يجب الإذعان به مثل ما يجب الإذعان بالنطق الذي ينطق به الإنسان.

الأسباب

---

(١) العنكبوت ٦٢

(٢) العنكبوت ٦٤

(٣) هود ٦

(٤) العنكبوت٦٠

(٥) الذاريات ٢٢-٢٣

هناك موازين إلهيَّة لهذا الرزق الربّاني اقتضت نزول الرزق بقدر معلوم يرتبط بمشيئته تعالى ولذلك سرٌّ بيَّنه سبحانه في قوله :{ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ }(١) وهذا الرزق . رغم كونه مقدَّراً إلاّ أنَّ الله سبحانه لا يوجده من غير سبب، ومن هنا قال { وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ }(٢) وقال: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ }(٣) .

فهذا الرزق رغم كونه مضموناً إلا أنَّ الوصول إليه يفتقر إلى أقل القليل من السعي: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ }(٤) فينبغي للإنسان أن يمشي في مناكب الأرض فيأكل، وهذا لا يعدُّ سعياً حقيقةً لأنَّه أمر لا بدَّ منه لمن أراد أن يأكل فلا سعي في البين أصلاً.

كما أنَّ الآية السابقة أعني:{ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ }(٥) تشير إلى أنَّ الرزق ينبغي أن يستنزل.

حقيقة الرزق في الدنيا

بعد ما بيَّنا كلاً من الرزق الأخروي والرزق الدنيوي حان لنا أن نتحدَّث عن حقيقة الرزق من المنظار

الإلهي بل الإنساني .

---

(١) الشورى ٢٧

(٢) الشورى ٢٨

(٣) الحجر ٢١-٢٢

(٤) الملك ١٥

(٥) الذاريات ٢٢

الرزق هو النفع الذي يصل إليه الإنسان ويتمكَّن من الإنتفاع به من غير أن يخلَّ بسائر زوايا حياته فيكون سهلاً ممتنعاً ، ومن هذا المنطلق لا يرى الإسلام ما في أيدي الكفّار رزقاً، ما دام أنَّهم لا يعبدون الله تعالى ، نعم هو رزق حيواني ، ولا قيمة له حينئذٍ .

فالذي يعين الإنسان ويدفعه إلى الله هو الرزق حقيقة وما يمنعه عن ذلك ، ليس برزق مهما كثر ، فمن يسعى نهاره وليله ليجمع المال فليس لسعيه نتاج لا في الدنيا ولا في الآخرة ، أمّا الدنيا فلأنَّه قد صرف أوقاته في طلب المال ولم يسنح له مجال للإستفادة منه في ذلك اليوم ، فضاع عمره في ذلك اليوم لأنَّه لم ينتفع منه . ففي الحديث :

((عن أبي ذر رحمه الله قال : قال رسول الله (ص): على العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجي فيها ربه عزوجل ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيما صنع الله عزوجل إليه ، وساعة يخلو فيها يحظ نفسه من الحلال ، فإن هذه الساعة عون لتلك الساعات ، واستجمام للقلوب وتوزيع لها))(١)

فهو قد صرف جميع ساعاته في الطلب ، وأمَّا لو أراد أن يستفيد منها في أيامه الآتية ، فلن يتمكَّن من ذلك إلا بمقدارٍ محدود والزائد ينتقل إلى غيره ، فهو إذاً قد جمع لغيره لا لنفسه . .

ومن هنا تعرف أهميَّة دعاء الرزق الذي ورد في تعقيبات صلاة العشاء ففي كتاب فلاح السائل : ومن الدعوات بعد العشاء الاخرة لطلب سعة الأرزاق ما رواه أبو المفضل – ره – عن أبي القاسم جعفر بن محمد بن عبدالله العلوي ، عن عبيد الله ابن أحمد بن نهيك ، عن محمد بن أبي عمير ، عن عبيد بن زرارة قال : حضرت أبا عبدالله عليه السلام وشكا إليه رجل من شيعته الفقر وضيق المعيشة وأنه يجول في طلب الرزق البلدان ، فلا يزداد إلا فقرا ، فقال له أبو عبدالله : إذا صليت العشاء الاخرة فقل وأنت متأن :

(١) بحار الأنوار ج ٧١ ص ٣٢٣ و ج ١٢ ص ٧١

((اللهم إنه ليس لي علم بموضع رزقي ، وإنما أطلبه بخطرات تخطر على قلبي فأجول في طلبه البلدان ، فأنا فيما أنا طالب كالحيران ، لا أدري أفي سهل هو أم في جبل أم في أرض ، أم في سماء أم في بر أم في بحر ، وعلى يدي من ومن قبل من ؟ وقد علمت أن علمه عندك وأسبابه بيدك ، وأنت تقسمه بلطفك وتسببه برحمتك ، اللهم فصل على محمد وآله ، واجعل يارب رزقك لي واسعا ، ومطلبه سهلا ، ومأخذه قريبا ، ولاتعنتني بطلب مالم تقدر لي فيه رزقا ، فانك غني عن عذابي ، وأنا فقير إلى رحمتك ، فصل على محمد وآل محمد ، وجد على عبدك بفضلك ، إنك ذو فضل عظيم))(١).

قال عبيد بن زرارة : فما مضت بالرجل مديدة حتى زال عنه الفقر ، وحسنت أحواله(٢) .

فتأمل في الدعاء فهو يطلب من الله أموراً أربعة:

١-سعة الرزق.

٢-أن يكون سهل المطلب.

٣-أن يكون قريب المأخذ.

٤-أن يطلب المقدَّر المقسوم له.

ونلاحظ أنَّه يقول بعد ذلك ((فإنَّك غنيٌّ عن عذابي)) فكم من رجال عذّبوا أنفسهم طوال حياتهم فتفرَّغوا لجمع المال وغفلوا عن العبادة و تهذيب نفوسهم ثمَّ ماتوا فورثها الآخرون فتعساً ، لهم وقبحاً .

راجع كتاب سفينة البحار ج ٣ باب "الراء" كلمة "رزق" ففيه أحاديث مفيدة جداّ .

فلسفة الاختلاف

مادم أنَّ الاختلاف في الرزق يقتصر بالدنيا ، فلا ضير فيه ، لأنَّ الدنيا قوامها بذلك ،بل لولا الاختلاف، لما أطلق عليها الدنيا فهي دار بالبلاء محفوفة . قال سبحانه :

{ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ }(٣)

فربَّما يجعل الله سبحانه رزق جماعة في أيدي آخرين كما قال تعالى:

(١) ******

(٢) بحار الأنوار ج ٨٦ ص ١٢٤ وفلاح السائل ص ٢٥٦
(٣) الزخرف٣٢

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ }(١)

وهذا الرزق غير مسلوب عن الإنسان أو المجتمع إلا مع كفرانه كما قال:{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ }(٢) وهذا نوع من العذاب الجماعي الذي كان ينزل على ما سبق من الأمم.

ثمَّ يبقى سؤال وهو :

هل يمكن لإنسان أن يكتسب مثل هذا الرزق من غير سعيٍ أصلا ؟

والجواب: نعم، ولكن يتوقَّف على أمرٍ مهمّ قد بيِّن في الآية التالية حيث قال تعالى :

{...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا }(٣) وهذا أيضاً ضمن القدر الإلهي فهو الذي جعل لكلِّ شيء.

لتبتغوا فضلا

هناك مرحلة أخرى في الرزق وهي ما يطلق عليها "الفضل". هذه المرحلة تفتقر إلى سعي أكبر و كسب مضاعف ولكن ينبغي أن يقترن بالشكر حتَّى ينطبق عليه عنوان الرزق ، والتعبير الرائج في القرآن في مثل هذه الموارد "إبتغاء الفضل". قال تعالى:

---

(١) يس ٤٧
(٢) النحل١١٢
(٣) الطلاق٣

{ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ *وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }(١)وهذا القسم من الفضل أسنده سبحانه إلى نفسه أيضاً حيث قال:{ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ...}(٢) وقال تعالى: { وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ }(٣)

والآيات كثيرة لا مجال لذكرها هنا وكلُّها تعني الرزق المادي ، ولكن هناك آيات أخرى تذكر مفهوماً آخر مضافاً إلى الفضل وهو "الرضوان".

فضلا من الله و رضوانا

منها الآية التالية التِّي وردت في شأن أصحاب الرسول (ص) حيث قال:

{ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ...} (٤).

وأيضاً قوله تعالى:

{ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ }(٥)

وقد مرَّ الحديث عن الرضوان.

النتيجة

---

(١) النحل١٤

(٢) آل عمران ١٨٠

(٣) التوبة ٧٦

(٤) الفتح٢٩

(٥) الحشر٨

الرزق ينبغي أن يكون من الله سبحانه وتعالى أي طبقاً للموازين والمعايير الصحيحة وعليه لا يطلق على الحرام أنَّه رزقٌ لأنه ممنوع منه بالنهي، ولأنه مدحهم بالإنفاق مما رزقهم والحرام يستحق الذم على إنفاقه لا المدح فلا يجوز أن يكون رزقا . و قد وردت كلمة "حرمنا" في قبال "رزقنا" ، قال سبحانه وتعالى : { فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ }(١) ثمّ

تطرّق إلى المحرّمات من الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها فقال: { وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ }(٢)

هذا:

ولو كانت كلمة "حلالاً" و "طيِّباً" حال لـ"ما رزقكم" فذلك يعني أنَّه ما رزقكم الله حال كونه حلالاً يجوز أكله .

و لو كان بعض الرزق محرَّما لما ذمَّ الله المشركين بقوله : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ أَ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ }(٣)

مضافاً إلى الحلِّية، تدل كلمة "مما رزقناهم" على أنَّ الرزق المادي و المعنوي من الله سبحانه ، ومادام هو منه فلا معنى للإمساك ، أصلاً لأنَّ الله الذي أعطى الآن سوف يعطي في المستقبل أيضاً: { وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...}(٤) ولو لم يشكر العبد ربَّه بالإنفاق ، لأخذ النعمة منه كما أنَّه لو شكر ، ليزيده . قال تعالى :{ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }(٥)

---

(١) النحل ١١٤

(٢) النحل ١١٨

(٣) يونس٥٩

(٤) الحديد١٠

(٥) إبراهيم٧

وقال :{... وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُضْعِفُونَ }(١)وقال في بيان لطيف{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ }(٢).

الأمر الخامس

وأما مفهوم "الإنفاق" فواضح وهو يتعلَّق بجميع ما رزق الإنسان من النعم المادية والمعنوية ، ومن أهمِّها بذل النفس و الولد في سبيل الله . ولكن الظاهر هنا هو بذل المال ، وهو أمر عظيم حيث يشتمل على الجهاد الأكبر بل هو الجهاد بعينه ، لأنَّ الإنسان يحب أمواله كما يحبُّ نفسه . قال تعالى : { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ }(٣) وقد فسِّر بالمال كما أنَّ قوله تعالى{إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ* فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ }(٤) فسِّر بمصداق مهم من مصاديق المال وهو الخيل وقال تعالى: { وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}(٥) فالإنفاق

يعني تزكية النفس من الشوائب التي تحجبها عن الله ، وهو الذي يوصل الإنسان إلى مستوى البرّ: { لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}(٦) وهذه الآية هي القاعدة العامَّة والكبرى الكلِّية التي تنطبق على الآيات الثلاث السابقة.

شمول الإنفاق:

---

(١) الروم٣٩

(٢) البقرة ٢٧٦

(٣) العاديات٨

(٤) ص٣١-٣٢

(٥) الفجر ٢٠

(٦) آل عمران ٩٢

إطلاق الإنفاق وعدم تقييده يدلنا على أنَّه شامل لكافة أقسامه من الزكوات الواجبة وغيرها ، كما تشهد لذلك آيات كثيرة تجعل الزكاة مع الصلاة . قال تعالى:{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ* وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}(١) وقال: { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}(٢) وقال:{ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ }(٣)

ولكن هناك مقامات يصل إليها المؤمن بالنوافل لا بالواجبات . ففي الحديث ،عن عبد الرحمن بن حماد، عن حنان بن سدير ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال :

((قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قال الله : ماتحبب إلي عبدي بشئ أحب إلي مما افترضته عليه ، وإنه ليتحبب إلي بالنافلة حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، إذا دعاني أحببته ، وإذا سألني أعطيته))(٤) و قال تعالى مخاطباً رسوله (ص): { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا }(٥) ندعو الله التوفيق للتقرب إليه بالواجبات والنوافل،إنَّه سميع مجيب والحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على محمَّد وآله الطاهرين .

****

{ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ }(البقرة /٤)

الآية الكريمة تبيِّن سائر صفات المتَّقين وهي ثلاثة:

(١) المؤمنون١-٤

(٢) لقمان٤

(٣) فاطر ١٨

(٤) بحار الأنوار ج ٧٠ ص ٢٢

(٥) الإسراء٧٩

الإيمان بما أنزل إلى رسول الله (ص) والإيمان بما أنزل من قبله والإيقان بالدار الآخرة، ويوجد بينها ترابط وثيق بيِّن بحرف العطف، وقد قلنا سابقاً إنَّ العطف هو الذي يجعل المعطوف ناظراً على المعطوف عليه.

الترابط الوثيق

نلاحظ في كثير من السور القرآنية أنَّ هناك ترابطاً وثيقاً بين بداياتها وأواخرها، بحيث أنَّها تشكِّل مجموعة واحدة، ونشاهد ذلك في سورة البقرة أيضاً، فهي تبدأ بالإيمان بالأمور الثلاثة المذكورة في الآية الرابعة منها، وهي رغم كثرة آياتها واشتمالها على حقائق متنوِّعة إلا أنَّها تختم بقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}(البقرة٢٨٥) وهي تحتوي على نفس تلك المفاهيم، من الإيمان بالكتب والرسل والآخرة حيث تقول: "وإليك المصير".

النسخ!

ربَّما يتصوَّر البعض أنَّه لا ضرورة للإيمان بما أنزل على الرسل الذين كانوا قبل الرسول (ص) لأنَّها منسوخة بالقرآن الكريم، وهو توهُّمٌ غير صحيح، يدفعه القرآن حيث قال تعالى:{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...}(المائدة٤٨) فالتصديق يعني الإيمان بها والهيمنة تعني كونها منسوخة. وأيضاً قوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} حيث جعل الإيمان بها من صفات المتَّقين، لأنَّ الإعتقاد بالنسخ إنَّما يصحُّ بعد الإيمان بأنَّها أنزلت من قبله تعالى وعلى ضوء هذا الإيمان، يصحُّ عتاب اليهود والنصارى في تحريفهم لهذه الكتب

المقدَّسة وتقبيح هذا العمل الشنيع وتهديدهم كما قال: {أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}(البقرة٧٥)

ثمَّ قال: { فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ }(البقرة٧٩) وسيأتي شرح الآيتين تفصيلاً في هذه السورة المباركة.

بما أنزل!

لو تفحصنا القرآن الكريم لعثرنا على آيات كثيرة تشتمل على هذا الأمر أعني "ما أنزل" وهو كما ترى مبهم لا يدلُّ على أمرٍ واضح فأيُّ شيء أنزل إلى الرسول ؟

الظاهر أنَّ "ما أنزل" هو الكتاب الإلهي كما تصرِّح بذلك كثير من الآيات المباركة كقوله:

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ...} (الأنعام٩٢) وقد ورد هذا التعبير في عشرات الآيات، منها قوله تعالى:{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ}(الأعراف٢-٣)

ولكن هناك آيات أخرى تدلُّ على أنَّ هذا المفهوم أشمل من الكتاب كقوله تعالى:

{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }(المائدة٦٧)

ولا شك أنَّ الآية وردت في شأن واقعة الغدير، وقد أشرنا إلى هذا الأمر سابقاً وشرحناه في كتابنا "الأنوار الإلهيَّة" فراجع(١)، ومع التدبُّر فيها نلاحظ عدم وجود أيّ تعارض بينها، لأنَّه تعالى كثيراً ما يركِّز على الحكم بما أنزل الله كقوله : {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ}(المائدة٤٤) وهو تنفيذ القانون الإلهي في المجتمع، كما تشهد لذلك الآيات التِّي وردت بعدها. والجدير بالذكر، ما ورد في قوله تعالى:{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}(المائدة٨١)

النبوَّة الخاصة والنبوَّة العامَّة

---

(١) الأنوار الإلهية ص١٢٦

الآية الكريمة تبيِّن أصلين من أصول الدين وهما النبوَّة والمعاد. وأمّا الثاني فسيأتي وأما الأول أعني النبوَّة فلها مرحلتان، قد بينهما الله سبحانه في الآية، فإنَّها وإن كانت بصدد بيان الإيمان بالكتب السماوية، إلا أنَّ ذلك يلازم الإيمان بالرسل، بل الأهميَّة الأولى تتوجَّه إلى الإيمان برسل الله لأنَّ العقل يحكم بضرورة وجود الهادي في كلِّ زمان، فقوله: "بما أنزل إليك" يستفاد منه النبوَّة الخاصة، وقوله "بما أنزل من قبلك" يدعو إلى النبوَّة العامَّة، وكلاهما مترابطان.كما أنّ هناك انسجاماً دقيقاً وتنسيقاً كاملاً بين الأديان الإلهية، فالأصل في الأديان واحد لأنها جميعاً من عند الله تعالى وأما الإنحرافات الطارئة عليها فهي من الناس أنفسهم، كما أنَّ الآية الكريمة تشير إلى أنَّ الذي يلزم الإيمان به هو ما أنزل إلى النبي وسائر الأنبياء من قبل، لا مطلق ما نُسب إلى السماء من كتاب أو حديث فلا يجوز الإيمان بالخرافات والأوهام.

مراحل الكتب و الرسل

إنَّ الكتب الإلهيَّة كلُّها، تعتبر مراحل مختلفة دراسية متدرِّجة للبشرية عامَّة حسب استيعابهم لها، فتبدأ بالابتدائية فالإعداديَّة فالثانوية فالجامعيَّة، فكلَّما ينضج فكر الإنسان ويرتفع مستواه، يترقَّى منهجه الدراسي ويتطلَّب كتاباً غير ما سبق، فمجيء الأنبياء واحد تلو الآخر، إنَّما هو لإكمال الشوط، قال تعالى: { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا...}(الحديد٢٧) وقال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ...}(البقرة٨٧) وقال: { وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ...}(المائدة٤٦)

(١٠٠/١)

وهذه الآيات هي التِّي ترسم لنا الخط الواضح للأنبياء، فالتقفية تعني جعل الشيء في أثر الشيء، فمقاطع الشعر تسمَّى قوافٍ، و القافيةٌ اسمٌ للجزء الأخير من البيت، فالقصيدة الكاملة مهما اختلفت من ناحية محتوى الأبيات إلا أنَّها تنطلق من منطلق واحد وتستهدف غاية معيَّنة، والأنبياء كذلك فكلَّهم ينطلقون من مبدء واحد وهو التوحيد و يدعون الناس إلى حقيقة واحدة وهي التقرُّب إلى الله سبحانه، فإذاً هم ذو قافية واحدة، ولو كانت مناهجهم فمختلفة: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً}(المائدة٤٨)

توضيح ذلك

الشرائع الإلهيَّة تشترك في أمور وتختلف في أخري :

أمَّا المشتركات

فهي تندرج في أمور أربعة:

١-المعتقدات الأساسيَّة

أ-التوحيد:

(١٠١/١)

لقد بعث الله جميع الأنبياء من أجل الدعوة إلى الإيمان بالله سبحانه وتوحيده، وهذا أمر واضح لا يحتاج إلى إثبات؛ كيف وهناك عشرات من الآيات الدالَّة على ذلك، فقد صرَّح القرآن في بيان الغاية من بعث الأنبياء حيث قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِي}(الأنبياء٢٥) وقال تعالى على لسان الأنبياء عليهم السلام {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}(المؤمنون٥٢) وقال: { إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}(الزخرف٦٤) وعندما يتحدَّث – سبحانه – عن أهل الكتاب ويذكر تفرقهم بعد أن جاءتهم البيِّنة من الله يقول: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}(البينة٥) وهذا إبراهيم (ع) يقول: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ}(الأنعام٧٩) ولذلك يستغلُّ سبحانه هذه العقيدة فيطلب من رسول الإسلام (ص) أن يدعوَهم إلى المحور المشترك بينه وبينهم فيقول:

(١٠٢/١)

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}(آل عمران٦٤) ومن جهة أخرى يشدّد سبحانه في مواجهة الشرك بجميع أبعاده ومراتبه حيث يقول: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}(الزمر٦٥) ومن الواضح أنَّ هذا الشرك المذكور هنا ليس من الشرك الصريح ولا الخفي بل هو أقل مستوى منهما وهو التوجُّه إلى المباحات التِّي لا بدَّ منها ، وشاهد ذلك قوله تعالى بعد ذلك : {بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}(الزمر٦٦) فالعبادة المطلوبة من الأنبياء سواء النبي الأكرم (ص) أو سائر الأنبياء عليهم السلام، هي عبادة الأحرار التي تتمحض في الله بما لهذا الإسم الأعظم من معنى، وهذا مفاد الحصر الناتج من تقديم ما حقُّه التأخير وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير سورة الفاتحة فراجع(١). والجدير بالذكر ما ورد في آخر الآية حيث قال: {وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} وذلك عطفاً على قوله {بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ} وقد أكَّدت الأحاديث على ذلك ففي الحديث المشهور حين اشتكت فاطمة بنت

علي بن أبي طالب عليهم السلام عند جابر بن عبدالله حال الإمام زين العابدين عليه السلام، وقالت له:

"يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله إن لنا عليكم حقوقا ومن حقنا عليكم أن إذا رأيتم أحدنا يهلك نفسه اجتهادا أن تذكروه الله، وتدعوه إلى البقيا على نفسه" فأقبل جابر يقول : يا ابن رسول الله، أما علمت أن الله إنما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلفته نفسك ؟ ! فقال له علي بن الحسين عليه السلام فيما قال:

((أفلا أكون عبدا شكورا))(١)

وفي نهج البلاغة قال أمير المؤمنين عليه السلام :

((إن قوما عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار))(٢)

ب:المعاد

جميع الأنبياء كانوا يدعون الناس إلى المعاد فيبشِّرونهم الثواب ويحذِّرونهم العقاب وهذا الأمر واضح بديهي لمن يتصفَّح القرآن الكريم.

ج:النبوَّة الخاصة

أعني نبوَّة النبي الأكرم (ص) من أهم تعاليم الأنبياء لأممهم، فاسمه (ص) كان ولا يزال مذكوراً في كتبهم، قال تعالى:{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ...}(الأعراف١٥٧)

وقال: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}(الصف٦)

د:الإمامة

هناك أمر مشترك بين الأديان وهو الإمامة والخلافة التي كانت متداولة بينهم، قال تعالى:

{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...}(المائدة١٢)

---

(١) بحار الأنوار ج٤٦ ص٧٨-٧٩

(٢) نهج البلاغة (عبده ط مصر) ٢: ١٩٢ ، بحار الأنوار ج٤١ ص١٤

والنقيب هو شاهد القوم وضمينهم وعريفهم وسيِّدهم و إمامهم، والجدير بالذكر ما ورد من الأحاديث الكثيرة منّا ومنهم، أن عدة الأئمة والخلفاء والسادة بعد النبي صلى الله عليه وآله اثنا عشر خليفة كعدة نقباء بنى إسرائيل نذكر نموذجاً واحداً منها:

((عن محمد بن علي بن إسماعيل اليشكري، عن سهل بن عمار النيشابوري، عن عمر بن عبدالله بن زيد، عن سفيان بن سعيد بن عمرو بن أشرع، عن الشعبي، عن جابر بن سمرة قال : جئت مع أبي إلى المسجد و رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب، فسمعته يقول : بعدي اثنا عشر – يعني أميراً – ثم خفض من صوته فلم أدر ما يقول، فقلت لأ بي : ما قال ؟ قال : كلُّهم من قريش))(١)

٢–الأسس الأخلاقية

جميع الأنبياء كانوا يحرِّضون الناس على التخلُّق بالأخلاق الحسنة واجتناب الصفات الرذيلة وهذا أيضاً واضح بديهي لا شك فيه، فمن يكن لديه إلمام بالقرآن ولو على مستوى بدائي، يذعن بهذه الحقيقة، وهذه سورة الشعراء تذكر نصائح الأنبياء وفي سبعة موارد منها قد ورد على لسانهم: " فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُون " والتقوى هو الأساس الأوَّل للتحلِّي بالصفات الحسنة والتخلِّي عن الصفات القبيحة.

٣–أساس الدين القويم

الدين واحد لا يتعدَّد كما قال: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ...}(آل عمران١٩) وهذه الوحدة في الدين هو الحافز والدافع المهم في توحيد شمل الأمة ومنعهم من التفرقة، ولذلك قال تعالى:

{ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا...}(الشورى١٣)

٤–أصول التكاليف

---

(١) راجع ينابيع المودَّة ص٤٤٥ ، البداية والنهاية ج٦ ص٢٤٧ وأيضاً الغيبة للنعماني: ص٥٧و٥٨ والخصال ج٢ ص٧٣ وقد أورد كثيراً منها العلاّمة المجلسي قدس سرُّه في بحار الأنوار ج٣٦ ص٢٣٤–٢٣٦

جميع الأديان الإلهيَّة متَّفقة على أصول التكاليف من العبادات والنسك، وهذا الأمر واضح لا ريب فيه، ولكننا سوف نتطرَّق إلى بعض الآيات في هذا المجال تذكرةً للقرّاء، فنقول:

أ–الصلاة والزكاة

وهما من أهم العبادات التّي كُلِّف بها جميع الأمم. يقول سبحانه في شأن إسماعيل(ع):
{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا}(مريم٥٤-٥٥)
بل حتَّى المستحبّات مثل صلاة الجماعة قد شرِّعت في الأمم السابقة. قال تعالى خطاباً لمريم(ع):
{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ }(آل عمران٤٣)
وبالنسبة إلى الصلاة في المحراب يقول:
{فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ...}(آل عمران٣٩)
ب:الحج
فهذا شعيب النبي يخاطب موسى بحضور ابنتيه:
{قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}(القصص٢٧)
وهناك حديث في تفسير العياشي عن الحلبى :
((سئل أبوعبدالله عليه السلام عن البيت، أكان يحج قبل أن يبعث النبى صلى الله عليه واله ؟ قال : نعم وتصديقه في القرآن، قول شعيب حين قال لموسى حيث تزوج : "عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ" ولم يقل ثماني سنين))(١).
قال العلامَّة الطباطبائي قدس سرُّه:
"وبه يظهر أنَّ حج البيت – وهو من شريعة إبراهيم عليه السلام-كان معمولا به عندهم"(٢)
ج:الصيام
الآية التالية قد صرَّحت بأنَّ الصيام كان واجباً في الأمم السابقة جميعاً :

---

(١) نور الثقلين ج٤ ص١٢٤
(٢) الميزان ج١٦ ص٢٥

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}(البقرة١٨٣)
ومع ملاحظة نهاية الآية المباركة أعني "لعلَّكم تتَّقون" تستطيع أن تعرف السرّ في وجوبه على جميع الأمم، لأنَّه قد مرَّ بأن الدعوة إلى التقوى، هي من أهم مناهج الأنبياء، فتطبيق ذلك الأمر الكلّي الذي مرَّ، يتحقَّق بهذه العبادة، فتلك كبرى وهذه صغرى فتأمّل.
وأما المفارقات

فهي أيضاً كثيرة إلا أنَّ كلَّها ترجع إلى الشريعة فكلٌّ من الأنبياء أولي العزم كان صاحب شريعة مميَّزة { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً}(المائدة٤٨) رغم كونهم جميعاً على طريقة واحدة، فالشريعة هي التِّي تقبل النسخ دون الدين فهو ثابت على أيِّ حال، فمن الأمور التِّي كانت في عصر عيسى هي: "صوم الصمت" قال تعالى مخاطباً مريم(ع):

{ فَإِمَّا تَرَيْنَّ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}(مريم٢٦)

والظاهر أنَّ هذا الصوم كان متعارفاً و مسنوناً في ذلك العصر، فلذلك قبلوا عذرها.

وهناك أمور كثيرة أخرى كانت محرَّمة في بعض الشرائع السابقة أو كلِّها وحلِّلت في شريعتنا السمحة. قال سبحانه:

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}(الأنعام١٤٦)

وتحريم هذه الأمور لا لآثار وضعيَّة سلبيَّة فيها بل هو نوع من التأديب والجزاء في قبال الظلم الذي كانوا يمارسونه، كما قال تعالى:{ فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا }(النساء١٦٠)

وقد ورد في تفسير الآية الأولى :

"ومعنى قوله "جزيناهم ببغيهم" أنَّه كان ملوك بني إسرائيل يمنعون فقراءهم من أكل اللحم والطير والشحوم فحرَّم الله ذلك عليهم ببغيهم على فقرائهم"(١)

وهناك حديث في الكافي الشريف ، نذكره بطوله إتماماً للفائدة:

((علي بن إبراهيم ، عن أبيه، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، وعدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن إبراهيم بن محمد الثقفي، عن محمد بن مروان جميعا عن أبان بن عثمان، عمن ذكره، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إن الله تبارك وتعالى أعطى محمدا صلى الله عليه وآله شرائع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام : التوحيد والاخلاص وخلع الأنداد والفطرة الحنيفية السمحة ولا رهبانية ولا سياحة، أحل فيها الطيبات وحرم فيها الخبائث ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ، ثم افترض عليهم فيها الصلاة والزكاة والصيام والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام والمواريث والحدود والفرائض والجهاد في سبيل الله . وزاده الوضوء وفضّله بفاتحة الكتاب وبخواتيم سورة البقرة والمفصل وأحلّ له المغنم والفيء ونصره بالرعب وجعل له الأرض مسجدا وطهور أو أرسله كافة إلى الأبيض والأسود والجن والإنس وأعطاه الجزية وأسر المشركين وفداهم، ثم كلف مالم يكلف أحد من الأنبياء وأنزل عليه سيف من السماء، في غير غمد

وقيل له : " قاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك))(٢)
وهذا هو مفاد من "المنَّة" الواردة في قوله تعالى:

---

(١) تفسير القمِّي ج١ ص٢٢٠
(٢) الكافي ج٢ ص١٧

{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ}(آل عمران١٦٤)
ولذلك ورد حديث عن رسول الله (ص) يطلق عليه حديث الرفع :
((الحسين بن محمد، عن معلى بن محمد، عن أبي داود المسترق قال : حدثني عمرو ابن مروان قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : رفع عن أمتي أربع خصال: خطاؤها ونسيانها وما أكرهوا عليه وما لم يطيقوا وذلك قول الله عز وجل: "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحمّلنا ما لاطاقة لنا به))(١)
وأيضاً:
((الحسين بن محمد، عن محمد بن أحمد النهدي، رفعه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: وضع عن أمتي تسع خصال: الخطأ والنسيان ومالا يعلمون ومالايطيقون وما اضطروا إليه ومااستكرهوا عليه والطيرة والوسوسة في التفكر في الخلق والحسد مالم يظهر بلسان أويد)) وهذا الحديث له دور مهم في استنباط الأحكام الشرعية . والآية التالية تشير إلى ذلك حيث عفى الله عن كثير من الأمور قال: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}(المائدة١٥)
الخاتميَّة

---

(١) الكافي ج٢ ص٤٦٢

في تقديم القرآن "ما أنزل إليك" دلالة على أفضليته وجامعيته وكماله، وإنَّه بوجوده الحقيقي الروحاني، مقدَّم على سائر الكتب – كما هو ثابت في محلِّه – كما أنَّ النبي (ص) مقدَّم في الخلق على سائر الأنبياء، وأيضاً يستفاد من ذلك خاتمية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وانقطاع الوحي بعده لأنّ الآية لم تتحدَّث عن المستقبل أصلاً بل تتحدَّث عن الماضي وهذا يدل على عدم وجود كتاب مستقبلي .

بقي بحث عن ماهيَّة تلك الكتب والصحف سيأتي في محلِّه إن شاء الله تعالى.

****

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}(البقرة/٤).

وأما المقطع الثالث من الآية المباركة أعني {... وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}(البقرة/٤)،. فيرتبط بالأصل الخامس من أصول الدين وهو المعاد، وقد تطرق القرآن الكريم إلى هذا الموضوع بالتفصيل أكثر من المواضيع الأخرى، بحيث لا تخلو أكثر السور من ذكر الآخرة –إمّا بالصراحة أو الإشارة– بل توجد سُوَر ممحضَّة في بيان الآخرة، مثل سورة الواقعة والنبأ وغيرهما.

الآخرة

عبَّر القرآن الكريم عن عالم الآخرة بتعابير مختلفة، أشرنا إلى بعضها في تفسير قوله تعالى "مالك يوم الدين"(١).

وقد ذكر سبحانه عنواناً لذلك العالم وهو: "الآخرة" وهذا أبرز مفهوم يشير إليه، فمن اللازم أن نتحدَّث عن هذا المفهوم على ضوء القرآن فنقول:

الآخرة في اللغة:

قال الراغب في غريب القرآن:

---

(١) راجع ص ****

"آخِر: يقابل به الأول وآخَر يقابل به الواحد. ويعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى، نحو: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}(العنكبوت/٦٤). وربما ترك ذكر الدار نحو قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}(الشورى/٢٠). وقد توصف الدار بالآخرة تارة وتضاف إليها تارة نحوقوله: " {... وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}(الأنعام/٣٢). {...وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}(يوسف/١٠٩). "(١)

لا تناسب بين الدنيا والآخرة

ليس هناك أمر جامع بين الدنيا وبين الآخرة أصلاً، حيث لا علاقة بين عالم الواقع وعالم الوهم والخيال، فالدنيا عند الله لا قيمة لها أصلاً وقد وصفها الله في كتابه بأوصاف من خلالها نعرف مستوى حقارتها ووهنها.

عَرَض

وقد وردت هذه الكلمة في آيات أربعة، فقال تعالى:

{... تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(الأنفال/٦٧). وقال: {...وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ...}(النساء/٩٤).

وقال: {... لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...}(النور/٣٣).

وقد حقَّر سبحانه هذه الدنيا في قوله: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى...}(الأعراف/١٦٩). فلكونها أدنى سمِّيت دنيا.

وأمَّا العرض:

---

(١) أيضاً راجع ص****

فهو الأمر الذي لايكون له ثبات ولذلك قالوا لما لاثبات له عرضٌ وذلك في قبال الجوهر. فالعرض هو الذي يفتقر إلى الجوهر في تحققه، كاللون والطعم والطول والعرض، فلا تتحقق هذه الأمور إلا ضمن الجوهر الذي له استقلال في وجوده. فالدنيا كذلك، أعني لا ثبات لها ولا استقلال.

متاع قليل

والمتاع القليل هو الذي له أمد وبعده لا واقع له أصلاً. قال تعالى: {مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}(آل عمران/١٩٧). وقال {مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}(النحل/١١٧). وعند التدبُّر في الآيتين نشاهد أنَّه تعالى قد ذمَّ هذه الدنيا بوصفها متاع قليلن وبيَّن عاقبة من يغترُّ بها، وفي قبالها الآخرة التِّي قد وصفت بصفة "الخير" المطلق في كثير من الآيات، فقال:

{... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً}(النساء/٧٧). وقال: {وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}(الأعلى/١٧). وقال تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}(الأنعام/٣٢).

العلاقة بين الأولى والأخرى

لو تأمَّلنا في مفهوم الآخرة، علمنا بأنَّها تقع في قبال الأولى،كما قال تعالى:

{وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(القصص/٧٠).
وقال :{فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى}النازعات/٢٥). {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى}(الضحى/٤).
{فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى}(النجم/٢٥). {وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى }(الليل/١٣).

(١١٢/١)

فالظاهر أنَّ هناك نشأتين فقط وهما: النشأة الأولى والنشأة الأخرى. وأما الدنيا فلا تعدُّ من النشآت بل هي حالة طارئة على البشرية ولئن وردت في بعض الآيات في قبال الآخرة أو القيامة، فباعتبار أنَّ الإنسان يعيش في هذه الدنيا، فالنظر كلّ النظر إليه لا إلى الدنيا، وقد شرحنا هذا الموضوع تفصيلاً في كتابنا دولة المهدي(ع) فراجع(١).

النشأة والإنشاء

والنشأة هي إحداث الشيء وإيجاده واختراعه. يقول سبحانه: {وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى}(النجم/٤٧).
وقال تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ}(الواقعة/٦٢).
إنَّ أكثر المفسِّرين فسَّروا النشأة الأولى بالدنيا. قال العلامة (قدس سرُّه) في الميزان:
"المراد بالنشأة الأولى نشأة الدنيا، والعلم بها بخصوصيّاتها يستلزم الإذعان بنشاة أخرى خالدة فيها الجزاء "(٢).
ثمَّ شرح كيفيَّة التذكُّر من خلال فناء الدنيا وفلسفة بعث الرسل وتشريع الشرائع وتوجيه الأمر والنهي وهداية الناس.
أقول:
إنَّ الدنيا لا يطلق عليها النشأة أصلاً، بل هي –كما قلنا– لا تعدُّ داراً، فالمقصود من النشأة هو ما أشار إليها سبحانه في قوله:
{... ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}(المؤمنون/١٤).
فالروح الإنسانية هي النفحة الإلهيَّة التي يعززها سبحانه ويعظِّم خلقها وهي التِّي سوف تعود إلى البدن في النشأة الآخرة، وعليه فالنشأة الأولى ترتبط بعالم الروح وحالاته كما في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ}(المؤمنون/٧٨).
والآيات التالية هي التِّي تفصِّل هذا الأمر وتحسم الموضوع، حيث يبدأ سبحانه ببيان الخلق فيقول:

---

(١) دولة المهدي المنتظر ص ١٠٠–١١
(٢) الميزان ج ١٩ ص ١٥٢

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ*ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}(السجدة/٧ : ٨).

فالمرحلة الأولى هي أنَّه سبحانه خلق الإنسان الأوَّل من طين وجعل نسله من سلالة من ماء مهين، ولكن هناك مرحلة ثانية هي الأساس في الإنسان كإنسان وهي ما بينت في قوله تعالى بعد ذلك، حيث قال:

{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ}(السجدة/٩).

أنظر إلى هذه الآية وقايسه بالآية السابقة أعني "سورة المؤمنون/٧٨"، فهي تفسِّر المقصود من الجعل في هذه الآية وهو "الإنشاء " بعين.

التوفي لا الفوت

على ضوء ذلك يمكننا أن نعرف حقيقة البعث والنشور، فالكافرون قد خلطوا بين أمرين فوقعوا في الشبهة والضلال:

الأمر الأوَّل: هو ما بيَّنه سبحانه بقوله بعد ذلك:

{وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}(السجدة/١٠).

فهم جهلوا أو تجاهلوا الروح وعطفوا كلَّ توجُّههم إلى الجسم، فتوَّهموا أنَّ ضياع الذرَّات المادية في الأرض، يعني فناء وزوال الإنسان بالمرَّة، والقرآن يرجِّح جانب التجاهل والكفر فلا يقبل قولهم لأنَّه قال{... بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}(السجدة/١٠).

وهذا يضاهي قوله تعالى في سورة يس: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}(يس/٧٨).

ومن الواضح أنَّهم يتصوَّرون أنَّ كلُّ ما في العظام هو من مقولة المادة وعندما تتفتَّت العظام وتصبح رميماً، فلا يبقى لها أثر بعد ذلك.

الأمر الثاني: وهو حقيقة الإماتة والإحياء، فالموت لا يعني الزوال بل هو "التوفي" والأخذ الكامل، ولهذا قال تعالى في جوابهم:

{قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}(السجدة/١١).

فلا زوال ولا انعدام في البين، إنَّما هو انتقال من مرحلة إلى أخرى، بل استمرار لأمرٍ واحد في

حالات مختلفة. كما أنَّ هناك استيفاءً ناقصاً يتحقَّق في المنام، حيث يقول سبحانه:
{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}(الأنعام/٦٠).
وقد فصَّل سبحانه في هذا الأمر أكثر حيث قال:
{اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}(الزمر/٤٢).
والمتأمِّلُ في هذه الآيات وأمثالها، يذعن بحقيقة الموت، فالحقيقة ليست هي إلاّ الأخذ والإرسال أو الذهاب والإياب أو الإبتداء والرجوع، ما شئت فعبِّر .
هذا:
ونفس الجواب يصدق في أمر العظام التي صارت رميماً، فالحياة التِّي أُخذت منها، سوف تَرَّد إليها مرَّة ثانية. قال تعالى:
{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}(يس/٧٩).
وقوله: "وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" في آخر الآية، يشير إلى علمه تعالى المطلق، فهو مخيِّم على كافة الأشياء من الجسمانيات والروحانيّات، مهما كانت وأينما كانت، فسوف يرجعها جميعاً، والآية تؤكِّد على المعاد الجسماني والروحاني الثابت لدى محققي علمائنا، طبقاً للنصوص القرآنية الكثيرة والأحاديث المتواترة. ومثلها قوله تعالى:

{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(البقرة/٢٥٩). وكلُّ ذلك نابع من قدرة الله تعالى فهو على كلِّ شيء قدير .
المعاد الروحاني و الجسماني
واللطيف ما في قوله تعال :
{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}(يس/٥١).
والجدث هو القبر كما صرَّح بذلك ابن عبّاد في كتابه "المحيط في اللغة(١)" قال: والجمع الأجداث
وقال تعالى: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ}(القمر/٧).
وقال تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ}(المعارج/٤٣).

و المفسِّر لهذه الآية المباركة قوله تعالى: {يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}(ق/٤٤). والجامع بينهما هو كلمة "سراعاً"، فالجدث إذاً هو نفس القبر الذي وضع فيه جسد الميِّت، ولا نعني به خصوص القبر المحفور بل عالم الدنيا بما فيه من ترابٍ وماء وهواء حتَّى الكواكب الأخرى .

---

(١) المحيط في اللغة ج٧ ص ٣٦

والحاصل أنَّ الآية تبيِّن المعاد بقسميه: الجسماني والروحاني، ولكن بأفضل أسلوب وأقصر عبارة، فهي تتكوَّن من كلمات أربعة فقط وهي "مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ" فالجسماني منه هو مفاد قوله تعالى: "مِنْ الأَجْدَاثِ"وأمّا الروحاني، فيستفاد من قوله: "إِلَى رَبِّهِمْ" لأنَّ الروح هو الذي يرجع إلى الربّ.

وأيضاً:

الآية الخامسة من سورة الحج تبيِّن مثالين للبعث والنشور ومن ثمَّ تستنتج خمسة نتائج، ثلاثة منها وردت في قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(الحج/٦).واثنتان ذكرتا في قوله تعالى:{وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}(الحج/٧).

فقوله تعالى:"مَنْ فِي الْقُبُورِ" يدلُّ على كلا المعادين الروحاني والجسماني وذلك لأنَّ كلمة"من" تطلق على ذي العقل والشعور، فهي تشير إلى الروح وكلمة "القبور" تدلُّ على تلك الحفرة التِّي دُفِن فيها الميِّت، ولا شكَّ أنَّها تحتضن الجسم لا الروح.

الرجوع إلى الله

الرجوع إلى الله سبحانه هي أهمّ مفردة يمكننا من خلالها أن نعرف ما تروم إليه كثير من الآيات المتعلِّقة بالقيامة، ونعرف أيضاً المقصود من الأولى والأخرى وبالنتيجة عالم الآخرة والسر في استعمال كلمة اليقين في قوله تعالى: "وبالآخرة هم يوقنون".

والذي يعزِّز هذا الأمر هو أنَّه تعالى كثيراً ما يتطرق إلى مفهوم اللقاء كما في قوله: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ }(البقرة/٤٦).

ولا شك أنَّ الذي يلاقي الربّ هو الإنسان بما هو إنسان، لا بما هو بشر يمتلك جوارح وأعضاء ولذلك نشاهد أنَّه تعالى يقول: {يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ}(الإنشقاق/٦).

وملاقاته تعالى يعني الرجوع إليه والاستقرار في ظلِّ رحمته ورأفته لا غضبه وقهره، ولذلك يقول سبحانه: {...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ}(البقرة/٢٢٣). فالبشارة بلقاء الله، تختصُّ بالمؤمنين خاصة دون غيرهم .

والآن نرجع إلى الآية التِّي ذكرناها سابقاً وهي قوله تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}(السجدة/١١).

فمفهوم الرجوع مشتمل على الابتداء، فلو لم يكن ابتداء في البين لا يكون للرجوع معنىً أبداً. وعليه نستنتج أمرين:

١-بما أنَّ الرجوع إلى الله يتعلَّق بالروح لا الجسم، فالراجع إليه إذاً هو الروح .

٢-بما أنَّ الرجوع يتطلَّب البداية، فالمبتدأ به هو الروح لا الجسم.

وقوله تعالى:{...كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}(الأعراف/٢٩) يؤكِّد هذه الحقيقة.

وعلى ضوئهما ندخل في أمرٍ آخر، ننطلق إليه من خلال قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ}(الواقعة/٦٢).

والآية المباركة أكَّدت على أنَّ الناس يعلمون النشأة الأولى وذلك بتأكيدين وهما "اللام" و"قد". وأيضاً حرَّضت على تذكُّر تلك النشأة.

اليقين بالآخرة

المفسرون لم يعطوا هذه الآية حقَّها من البيان والتوضيح وأنَّ المقصود من " فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ" في الآية ما هو؟ وأكثرهم قال بأنَّها تعني "فهلا تعتبرون"(١).

وعلى ضوء ما شرحنا، نقول:

الظاهر أنَّ المقصود من التذكُّر هو معناه الحقيقي وهو أن يذكر الإنسان كيفيَّة خلقه، فيعلم بضرورة المعاد، بمعنى أنَّه بمجرَّد أن لاحظ النشأة الأولى لتلك الروح الإلهية التي نُفخ فيها حيث قال: { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}(الحج/٢٩)، عَرِف قطعاً بوجود النشأة الآخرة حيث لا انفصال بين الأمرين ولا فارق بين النشأتين.

---

(١) مجمع البيان ج ٥ ص ٢٢٣

وعلى هذا يمكننا أن نعرف السرّ في قوله تعالى: {... وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}(البقرة/٤). وأيضاً لماذا اختصَّ اليقين بالآخرة والإيمان بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله على الأنبياء؟

فتلك الأمور ليست لها علاقة مباشرة بالإنسان فينبغي الإيمان بها، وأمَّا الآخرة فهي كالمبدأ أي معرفة الله فيعتبر فيها اليقين، وهي أعلى مستوى للمعرفة الإنسانيَّة.

وقد ورد في الحديث:

((عن العدة ، عن البرقي ، عن أبيه ، عن هارون بن الجهم أو غيره عن عمر ابن أبان الكلبي ، عن عبدالحميد الواسطي ، عن أبي بصير قال : قال لي أبو عبدالله عليه السلام يابا محمد الاسلام درجة ؟ قلت : نعم ، قال : والايمان على الاسلام درجة ؟ قلت : نعم ، قال : والتقوى على الايمان درجة ؟ قال : قلت : نعم ، قال : واليقين على التقوى درجة ؟ قلت : نعم ، قال : فما اوتي الناس أقل من اليقين وإنما تمسكتم بأدنى الاسلام فاياكم أن ينفلت من أيديكم))(١)

فاليقين مرتبة عالية جدّاً وهو فوق المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وقد تحدَّث القرآن عن مراحل ثلاثة منه وهي علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين وبينها فروق يأتي في محلِّها إن شاء الله.

و ينبغي أن يعلم أنَّ اليقين، لا يقابل الشك أو الجهل فحسب، بل يقابل الغفلة أيضاً والمشكلة الكبيرة التِّي تعاني منها البشرية ليست كامنة في الجهل، بل نابعة من الغفلة التي هي فرع خبيث من فروع التوجُّه إلى ظاهر الدنيا، كما يقول سبحانه: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}(الروم/٧). والمفروض أن ينتقل الإنسان من ظاهرها إلى باطنها، فإنَّ ذلك يوصل الإنسان إلى اليقين، يقول سبحانه: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ}(الأنعام/٧٥).

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٥٢ .

ولكلِّ شيء ملكوت وباطن وهو راجع إلى الأمر لا الخلق: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}(يس/٨٢). وذلك العالَم هو عالَم الوحدة وهو بيده تعالى، ومن هنا كانت الآية التالية، نتيجةً للأولى حيث قال: {فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(يس/٨٣). وعليه تعرف سبب التحريض بل العتاب في قوله:

{أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}(الأعراف/١٨٥).

فإذا امتلك الإنسان العين الملكوتيَّة –أعني البصيرة– فلا باس حينئذٍ من أن ينظر إلى الخلق أيضاً، حيث أنَّ نظره هذا لا يُغفله عن باطنه أصلاً ولا يتورَّط بما تورَّط فيه هؤلاء الذين قال عنهم: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ}(الروم/٧). فإذا اكتسب هذه النعمة الجسيمة، فلا مانع أن ينطلق من الظاهر ليقوّي باطنه كما قال تعالى: {وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ}(الذاريات/٢٠). فلم يكن ما في الأرض آية إلا بعد اليقين، وكلَّما ازداد اليقين ازدادت آيتيَّة الأرض وأمثال الأرض. وقال تعالى :{وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}(الجاثية/٤). إلى أن يصل الإنسان إلى مستوى من العظمة والمنزلة حيث كان عليٌّ عليه السلام حيث قال: ((لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً)).

التذكُّر

نرجع إلى قوله تعالى:{وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ}(الواقعة/٦٢).

فنقول:

(١٢٠/١)

ولعلَّ قوله "فلولا تذكَّرون" يعزز ما قد ذكره الهمداني–قدس سرُّه– فإنَّه نوع إثارةٍ لفكر الإنسان وقلبه، ولكي يتقوَّى مفعول هذه الإثارة، استند سبحانه إلى أمورٍ ثلاثة طُرحت بأسلوب استفهامي حيث قال: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ}(الواقعة/٦٣). ثمَّ قال: {أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ}(الواقعة/٦٨). وقال: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ}(الواقعة/٧١).

وكلٌّ واحد من هذه الأمثلة الثلاثة، يشتمل على جوانب استدلاليَّة عميقة لا مجال لبيانها هنا وسوف نتطرَّق إليها في محلِّها إن شاء الله تعالى.

والجدير بالذكر ما بَيَّنه السيد الهمداني في تفسيره حيث قال:

"إنَّه تعالى قد عبَّر عن الإيمان بيوم الجزاء بالإيقان وهو مرتبة عالية من الإيمان ، والتناسب الموجود في هذا التعبير هو أنَّه قد أخذت حالة التذكُّر في اليقين ، فالإيقان بيوم الجزاء هو الإعتقاد به بنحو يكون دائماً في ذكره ولا يغفل عنه أبداً لأنَّ أفضل أسلوب لكسب الفضائل الأخلاقيَّة و تحقيق النظم الفردي و الجماعي في البشر إنَّما هو ذكر يوم الجزاء ...وضد التذكُّر هو النسيان و الغفلة عن يوم الجزاء وهو السبب الرئيسي لاتِّصاف الإنسان بالرذائل الخُلقية "(١)

أقول: الدليل عليه قوله هو ما ذكره سبحانه توصيفاً لإبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام): {إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ}(ص/٤٦).

وأيضاً قوله تعالى:

(١) أنوار درخشان(بالفارسيَّة) ج ١ ص ٤٠

{وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}(الجاثية/٣٢). ونتيجة ذلك هو أنَّهم ابتلوا بالسيئات التِّي فضحوا بها يوم القيامة: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون}(الجاثية/٣٣). كلُّ ذلك من أجل النسيان: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}(الجاثية/٣٤).

ثمَّ:

إنَّ قوله تعالى: "وبالآخرة هم يوقنون" يشتمل على القصر من خلال أمرين:

١-تقديم الجار والمجرور وذلك كقوله تعالى: {إِلى اللَّهِ تُحْشَرُونَ}(آل عمران/١٥٨).

٢-تقديم المسند إليه أعني "هم" وهذا يعني أن الإيمان بالآخرة مقصور عليهم.

فهذا يدلُّ على مقام المتَّقين الشامخ حيث أنَّهم جعلوا الآخرة نصب أعينهم، لا خلف ظهورهم، فكلُّ توجههم إليها لا يلتفتون إلى غيرها أصلاً.

والشاهد على ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}(النمل/٣). وأهميَّة هذه العقيدة وخطورتها تظهر عند التأمُّل في قوله تعالى: {... وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ *الَّذِينَ لاَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}(فصلت/٦ : ٧).

قال العاملي في الوجيز:

"وفي تقديم الظرف وبناء "يوقنون " على "هم" تعريض بغيرهم من أهل الكتاب، وأنَّ ما هم عليه من أمر الآخرة غير مطابق ولا عن إيقان"(١).

هذا الكتاب من مطبوعات موقع الكوثر ومن منشوراته الإلكترونية في الإنترنت فلا يجوز الإستفادة منه تجاريا
www.al-kawthar.com/maktaba

(١) الوجيز ج١ ص ٦٧